عبد المجيد طعام

هناك خطأ ما

قصص

عبد المجيد طعام

هناك خطأ ما..!!

قصص

الإهداء

إلى منبع سعادتي : زوجتي
وبناتي..

هناك خطأ ما... !!

عبر الطائرة وعلى وجه السرعة ، عاد معاذ كريستيان مع أبيه إلى أرض الوطن لحضور مراسيم دفن جده الحاج علي . بعد الظهر وقرص الشمس مشتعل يلسع رؤوس المشيعين ،انطلق موكب الجنازة في اتجاه مقبرة المدينة . وجد معاذ كريستيان صعوبة في تتبع المسار بين القبور المبعثرة والغبار المتطاير والأعشاب العشوائية والأشواك المتحفزة لوخز كل من يمر بالقرب منها وزادت حدة الصعوبة عندما - ودون سابق إنذار- انفض الجمع من حول جثمان الحاج علي إثر ظهور ثعبان ضخم وهو يزحف نحو قبره. تعالت الأصوات والتعويذات وداس الجمع الغفير الأموات والأحياء... خوف وهلع وتساؤلات كثيرة جالت في أذهان أولائك الذين حضروا الجنازة ، وأحس ابن الحاج علي بحرج كبير وقال في نفسه :" لا شك أن أبي سيتعذب كثيرا في قبره ...".

بعد قتل الثعبان استعجل الجمع إنهاء مراسيم الدفن وسط الغبار وضجيج الأطفال والمتسولين الذين تفننوا في استعراض عاهاتهم الجسدية للظفر بصدقات هزيلة ...لم يتعود معاذ كريستيان الذي اجتمعت في دمائه الأصول الفرنسية والمغربية على هذا المشهد المرعب، ارتسمت على

وجهه علامات استياء واستغراب وبقدر ما كان مطمئنا على مصير جده الفرنسي جوزيف الذي حضر مراسيم دفنه قبل أشهر مضت بقدر ما عاش قلقا وخوفا على مصير جده المغربي الحاج على ...هناك في فرنسا دفن جده جوزيف بمقبرة تبعث على الطمأنينة والسكينة ، أشجار وارفة الظلال ، أزهار وورود تزين الممرات أرضية معشوشبة تجعل الإنسان يتقبل الموت بقلب مطمئن.. قال معاذ كريستيان بصوت لم يسمعه إلا هو :" هناك يموت الإنسان ولا ينتقص أي شيء من كرامته.."

حاول معاذ كريستيان أن يتخلص من المكان قبل الآخرين ..غادر المقبرة وهو يحمل قلقه ، مخاوفه ، تساؤلاته وإحساسه المتعاظم بمأساة الموت .. داخل السيارة قال لأبيه :"هل تسمح يا أبي أن أطرح عليك سؤالا.. ؟ " أومأ الأب بالقبول فقال له :" لماذا يا أبي دفن جدي في هذه المقبرة المخيفة ؟؟" على الفور رد الأب:" إنها مقبرة المسلمين .. في عقيدنا المقبرة ما هي إلا مرحلة ..هي مجرد قنطرة سيعبرها جدك ليجد نفسه في الجنة... "

لم يكن الرد شافيا فزادت وطأة الأسئلة القلقة ومارست ثقلها العنيف وشعر معاذ كريستيان بألم يعتصر أحشاءه

ولم يستطع التخلص من مشهد الثعبان وهو يزحف نحو قبر جده ،لازال يرعبه ولازالت تعويذات الجمع تشككه في مصير جده فقال لأبيه :" أحقا توجد الجنة خلف هذا الثعبان الضخم والغبار والمتسولين الذين تفننوا في استعراض عاهاتهم .. ؟؟؟"

حاول الأب أن يكون حاسما ليضع حدا للتساؤلات المحرجة فقال :" مقبرتنا يا معاذ أرادها المسلمون أن تكون على هذا الشكل ليشعر الأحياء منهم بأهوال القبور فيتحفزون أكثر لعمل الخير في دنياهم من أجل الظفر الجنة .." مرة أخرى لم يقتنع معاذ كريستيان برد أبيه فقال على الفور :" .. جدي جوزيف كان رجلا طيبا ودفن بمقبرة جميلة .. وجدي الحاج على كان رجلا مِؤمنا وطيبا ودفن في مقبرة لا تحفظ الحد الأدنى من كرامة الإنسان.. لماذا ... ؟؟؟" أحس الأب بنوع من الحرج وفي آخر محاولة لوضع حد للأسئلة المحرجة قال لمعاذ كريستيان بنبرة عنيفة :" جدك جوزيف لم يكن مسلما وطبيعي أن يدفن في مقبرة غير المسلمين....هؤلاء متشبثون بالدنيا ولا يهتمون بالجنة....بل هناك منهم من لا يؤمن بوجودها ...هؤلاء يريدون أن يجعلوا مقابرهم صورة تعكس حياتهم الجميلة المنظمة ... هل

فهمت ألآن الفرق بين جدك الحاج علي وجدك جوزيف.. ؟؟؟"

معادلة صعبة لم يفهمها معاذ كريستيان وبنبرة فيها الكثير من القلق والحيرة رد على أبيه :" أنا لا أفهم..جدي الحاج علي.. الرجل المسلم الطيب يدفن مع الثعابين والعقارب والغبار والأزبال ليدخل الجنة ...و جدي جوزيف.. الرجل غير المسلم الطيب يدفن وسط الورود وألأزهار ليدخل جهنم...لم أفهم ..لاشك أن هناك خطأ ما ..أين هو ..لا أعرف ... أنت أيضا يا أبي حتما لا تعرف... أظن أن جدي الحاج على بحاجة إلى دعواتنا أكثر من جدي جوزيف...."

أكيد التحاليل كانت خاطئة

في ركن من الحديقة المهمَلة جلس بلقاسم مع صديقه الحاج يتجاذبان أطراف الحديث ويبحثان في تجاعيد ذاكرتيهما عن أشرطة غابرة قد تمنحهما لذة استرجاع شذرات من أيام زمان ...أيام امتزج فيها الشباب بالشغب ، لكن ودون سابق إعلان تذَّكر بلقاسم في تلك اللّحظة شيئا مهمّا فقال لصديقه :" كنت أبحث البارحة عن بطاقة التقاعد، فصادفت ظرفا يحمل تحليلات طبية قمت بها منذ خمسة وأربعين سنة...كان عمري لا يتجاوز الخامسة والعشرين...." نظر إليه الحاج وهوس حب معرفة المزيد غير تضاريس جبهته المجعّدة فنطق قائلا :"بعد مرور خمسة وأربعين سنة !!... يبدو أن التحاليل لم تفصح عن أي مشكل صحي.. لو كان العكس لما عشت هذا العمر الطويل..." رشف بلقاسم رشفتين من فنجان قهوته وأخذ نفسا عميقا من سيجارته ورد:" لم أفتح الظرف إلا البارحة... ظل مغلقا طيلة هذا الزمن...طيلة خمسة وأربعين سنة.." لم يحتمل الحاج ثقل الانتظار فسأله بعينين جاحظتين :" فتحت الظرف البارحة فقط !!؟ ماذا وجدت فيه .. ؟؟"

زاغت عينا بلقاسم في فراغ يشبه العدم ثم رد على صديقه الحائر: " نعم يا صديقي فتحت الظرف البارحة...نعم فتحته البارحة....ليتني ما فعلت ...في الحقيقة لم أعد قادرا على فهم ما حدث لي طيلة تلك المدة...التحاليل ....أكدت أنني لا يمكن أن أنجب أطفالا !! " تزحزح الحاج من مكانه واقترب من وجه صديقه وبصوت خافت قال له :" ماذا تريد أن تقول أ سي بلقاسم؟؟"

وضع بلقاسم سيجارته بين شفتيه وأخذ نفسا طويلا وكثيفا...نفث دخانها حوله بشكل متقطع فبدا كمن يدفع عن عينيه كوابيس مزعجة أو كمن أرهقه البحث في ذاكرة مهترئة ... بعد أن أحس بنفاذ صبر الحاج قال له بصوت منكسر :" لكن لو كنت عاقرا.. مستحيل !!...لقد أنجبت مع الحاجة حليمة أولادا وبنات...لدي الآن أحفاد...كلهم أتوا من صلبي..أليس كذلك يا صديقي ؟؟...لعل التحاليل كانت خاطئة..أكيد كانت التحاليل خاطئة.."

هو أم هي .. ؟؟؟

إهداء : إلى كل شهيدات لعنة الأنوثة في الوطن العربي ....

" أحقا ما أسمع ؟..أعيدي ما قلت..أرجوك ..."

جالت في ذهنه الشكوك لأنه عاش تجربة مريرة لبس فيه الكذب لبوس الصدق ، فأمر زوجته بأن تعيد عليه ما قالت وأن تركز في لغتها لأنه فقد القدرة على استيعاب ما يسمع ... قالت له للمرة الألف : " نعم أنا حامل وفي أسبوعي الرابع... ! ! "

كاد أن يفقد كل أمل في أن يصبح أبا، زار مع زوجته كل أطباء المدينة وجال بين العشابين والدجالين وسافر إلى مدن أخرى،ابتلع أعشابا مضرَّة وحمل على جسده طلاسم كثيرة وتناوب عليه الرقاة لكنه كان يسمع دوما من الأطباء نفس الكلام :" ليس لديكما أي مانع للإنجاب ...كل التحاليل تؤكد ذلك ...ضعوا ثقتكم في الله.."

الانتظار كان قاسيا، متعبا ولذيذا ..... كان يحلق في فضاء أحلام يقظته..... كان يرى ابنه الذكر يكبر ويشتد عوده .. ارتسمت على شفتيه ابتسامة شكر فنظرت إليه الزوجة

وقالت له :" بعد تسعة أشهر ... أخيرا يتحقق حلمنا ....كم أرجو أن يمنحني الله بنتا جميلة تحمل شكل ولون عينيّ ولها منك الشفتين والأنف..." لم يستسغ حلمها ، نظر إليها بعينين حادتين تعلنان الرفض وأرجآ كل شيء إلى يوم الوضع لتكون المفاجأة أكثر لذة ومتعة .

كان مقتنعا أنها تحمل في بطنها ولده "حسام" بينما هي كانت تلمّح بكل قوة أنها تحمل في بطنها " عطاء" ذات العينين العسليتين... مرت أشهر الحمل عادية تصارعت فيها الأحلام المختلفة.. حانت لحظة الحسم، لحظة المخاض، اختار لها أحسن مصحة في المدينة...تركها بين يدي الممرضات والطبيب ونزل إلى غرفة الانتظار، لا يجد مستقرا ...دار دورات كاملة داخل القاعة الفسيحة ، قطعها طولا وعرضا مرات عديدة .. أحس بجسده يرتعد عندما رأى الممرضة متجهة إليه لا تسبقها ابتسامة البشارة قالت له:" كل شيء مر على ما يرام...زوجتك في صحة جيدة والمولود كذلك...لكن الطبيب يريد أن يراك..." ارتبك وارتجفت شفتاه، تماسك نفسه وسألها:" المولود ذكر ؟ أليس كذلك ... ؟ ذكر أليس كذلك.. ؟ ؟ ؟ ؟ " لم تجبه الممرضة وأفهمته أن كل الأجوبة سيجدها عند الطبيب داخل مكتبه.

هنأه الطبيب وهدأ من روعه وقال له :" كل شيء مر في أحسن الظروف، ما يهمّنا الآن هو الوضع الصحي لزوجتك ...لقد خلدت للنوم وهذا مؤشر إيجابي...و المولود كذلك ...." قاطعه الزوج وسأله :" المولود ذكر ... ؟ ذكر.. ؟ أليس كذلك... ؟ لقد ربحت الرهان ...زوجتي كانت تريد " عطاء" وأنا أردت "حسام"....الحمد لله...ذكر"

طلب الطبيب من الزوج أن يهدأ ودعاه للجلوس والإنصات لكلامه، انهار على أريكة، حدق بعينيه المتعبتين في نظارتيّ الطبيب متابعا باهتمام كبير كلامه : " استمع جيدا.. يا سيدي.. لما سأقوله لك...لقد وضعت زوجتك ..لكننا لا نستطيع أن نحدد الآن جنس المولود هل هو ذكر أم أنثى... ! ! " أدرك الطبيب أن الزوج لم يفهم أي شيء فأضاف:" المولود ولد بعضوين تناسليين مختلفين ، عضو ذكر وآخر أنثى ... ولا يمكن الآن أن نحدد جنسه إلا بعد أن نجري له عملية جراحية، نبتر عضوا ونترك آخر، وهكذا تنتهي المشكلة." باستعجال غير محسوب قال الزوج :" أنا موافق ..أنزعوا منه عضو الأنثى وأتركوا الذكر... ! ! مستعد أن أوقع لكم على كل الأوراق التي تحتاجونها ...الآن..."

أخفى الطبيب ابتسامة مشفقة وقال له:" الأمر ليس بالسهولة التي تتصور...العملية لا يمكن أن تجرى إلا بعد أن يبلغ المولود الخامسة من عمره ...حتى يكتمل نمو العضوين الجنسيين ونبتر واحدا منهما." انزوى الزوج في دواخله المضطربة وقد تحولت أحلام يقظته إلى كوابيس مزعجة ، ماذا سيقول للعائلة ، للجيران ، للأصدقاء حتما سيسألونه :" هل ذكر أم أنثى..؟ " بماذا سيجيب ، هل له القدرة على أن يقول لهم :" وضعت زوجتي مولودا بعضوين تناسليين..و لا يمكن أن نحسم الآن في أمر جنسه.." إنه يدرك أن لا أحد سيفهم ما يقول ولا أحد سيتقبل هذا المولود الذكر والأنثى في نفس الوقت " يا للعار الذي أصابني ؟! ماذا فعلت من جرم حتى يعاقبني الله هذا العقاب الغريب... ؟! "

اقتحم الطبيب صمته وأوقف تناسل تساؤلاته القاتلة وقال له :" أن يولد مولود بعضوين تناسليين مختلفين ، ليس بالأمر الغريب ..أمر حدث ويحدث وسيحدث مستقبلا ..على الأبوين أن يعرفا كيف يخرجان من هذه التجربة بأقل الأضرار.." شعر الزوج بارتياح مؤقت لكن صدمته كانت أقوى حين عرف أن اختيار جنس المولود بعد خمس سنوات

لم يعد من حقه وإنما هو حق يجب أن يمارسه الطفل أو الطفلة " كيف .. ؟ ؟ سؤال كنت أنتظره ...عليكما أن تعرضا المولود خلال كل هذه السنوات على طبيب نفسي ليتتبع ميولاته ، هل تستهويه حياة الأنثى فيريد أن يكون أنثى أم العكس.... عليكما أن تقدما له دعما تربويا ونفسيا محايدا واتركا له حرية الاختيار.."

خرج الزوج منكسرا متعبا من مكتب الطبيب، لم يتوجه إلى الغرفة أين ترقد زوجته ، ذهب مباشرة إلى شقته ... جمع كل العرائس التي اشترتها زوجته لتزين بها غرفة حلمها ،ألقى بها في القمامة وعلق على الجدار قرب سرير حلمه صورا لحاملي الأثقال ورياضة كمال الأجسام وهم يستعرضون عضلاتهم الرجولية المفتولة وصرخ بأعلى صوته في جنح الليل :" لن نبتر من جسدك يا ولدي إلا العضو التناسلي الأنثوي ...أنت حسام ولن تكون أبدا عطاء ..."

التوأم الذكر

أيقظها قبل آذان الفجر وصاح في وجهها :" يجب أن يكتمل العقد ! ! " ردّت عليه بعينين يغالبهما النعاس:" عن أي عقد تتكلم يا عبـ..."

" إنه العقد الذي سيدخلنا الجنة من أبوابها الثمانية...هللي وافرحي....لقد انتقانا الله لنحقق معجزته على الأرض...في آخر هذا الزمان الشقي..هللي يا أمة الله..."

اقترب من أذنها اليمنى بسمَلَ وبصوته الشجيّ السّاحر أذَّنَ لها لكن قبل أن تستسلم لرغبته الجامحة سألته:" قل لي أولا ما علاقة الجماع بمعجزتك الربانية ...؟ " لامس بشفتيه أذنها وفاه بما يشبه الهمس :" أريدك أن تنجبي..بل يريدك الله أن تنجبي.." نظرت إليه باستغراب بعد أن طردت بقايا النعاس من عينيها وقالت له :" ألا يكفيك ما أنجبت من ذكور وإناث...لديك أدم وإبراهيم وأيوب وصالح ومحمد وعثمان..و خديجة وعائشة والزهراء وأسيا ومريم..لديك كل الأنبياء والصحابة وخير نساء العالمين..ألا يكفيك هذا العقد لتدخل الجنة؟؟ " مخافة أن يدركه آذان الفجر قبل أن

ينجز معجزته الربانية استعجل الرد فقال لها بنبرة فيها الكثير من الحسم والإصرار:" لن يكتمل العقد إلا بتوأم ذكر...لن يكتمل إلا بالحسن والحسين..يجب أن تنجبي توأما ذكرا.."

صلاة مع الجماعة

أصبح لا يستجيب إلا لمن يناديه "نانسي" ،كان يحس بشيء ما يسكن دواخله،يدفعه بقوة نحو الأنوثة .لم يهتم والداه بالطفل الأنثى،أرجآ إحساساته وتحولاته الأنثوية إلى أجل غير مسمى ، لكن الشعور بالحرج بدأ يتعاظم عندما أدرك أفراد الأسرة أنه تخلى عن اسمه " أنور " وتشبث ب " نانسي".

قضى نانسي طفولة صعبة..تداول على اغتصابه إخوته وأبناء أعمامه وعماته وأبناء أخواله وخالاته..كلهم وجدوا في جسده الغض المؤنث الفرصة لممارسة أقسى ما يمكن أن ينتجه الخيال الشبقي..كان ينفرد به أولاد الحارة كذلك ..يمارسون عليه عنفهم الجنسي ..لم يكن يفهم ما يقع له كان يظن أنه مخلوق من أجل خدمة غرائز الآخرين أو هو هبة الله لعباده من أجل الإشباع الجنسي ...لم يمد أحد يد العون لنانسي ..اشترك الجميع في أن يحولوا جسده الأنثوي إلى وعاء يتدفق فيه شلال رغباتهم الشقية.

صيغ " نانسي" كما أراد الآخرون أن يكون ... كل واحد كان يرى فيه مثال الزوجة غير الممكنة الوجود ، الزوجة

المستعدة كي تسافر معك بعيدا في اقتناص اللذة .كلما اشتد عوده وفاضت فيه الأنوثة أزداد الطلب عليه إلى أن تحول إلى علامة تجارية نادرة تحتاج إلى حماية مقربة لهذا نصب مفتول العضلات نفسه وصيا عليه...تغيرت حياته نحو الأصعب ،أصبح يباع كل ليلة للذي يدفع أكثر .لازال "نانسي" يتذكر تلك الليلة التي أجلسه مفتول العضلات وسط حشد من الذكور ، ألبسه زيا نسائيا وأجبره على وضع الزينة على وجهه،و قدمه إلى الحشد الذكوري كعروس عذراء ،ارتفع صوت مفتول العضلات إيذانا بافتتاح موسم الزواج :" أمامكم أيها الحضور أجمل مخلوق وهبه الله لنا ...من يريد أن يتزوجه لليلة واحدة ،زواجا شرعيا ..يكون له حق التمتع به ... لليلة واحدة فقط ... عندما يصيح الديك في الصباح لا بد من إعلان الطلاق .. نانسي المخلوق الفاتن يكون من حق من يدفع أغلى مهر... أعلن الآن عن افتتاح المزاد العلني..."

ليال طوال قضاها نانسي في حضن أزواج ، لا زال يلتقي بهم بعد مرور ما يناهز أربعين سنة ،لازال يذكر أسماءهم وأعمارهم لا زال يحمل في ذاكرته الجريحة صور ساديتهم القاتلة.أولائك الذين تزوجوه لليلة واحدة كبروا

وتغيروا،منهم من تزوج وأنجب أطفالا ومنهم من هاجر إلى الخارج ومنهم من حصل على وظيفة عمومية ومنهم من اشتغل في الأمن ومنهم من اشتغل بمساجد المدينة يؤم الناس ويكلمهم عن الفضيلة... أحس نانسي أن الحياة تغيرت في الحي ..طبعا لم يعد يباع في سوق النخاسة ربما لأن العمر تقدم به فاختفت نضارة الجسد التي كانت تثير الغريزة أو ربما لأن شباب الحي تغيروا فعلا حيث أصبحوا أكثر إيمانا وأكثر انشغالا بأمور الدين..لكنهم لم يعودوا يطيقون النظر في وجهه ،لا يبادلونه التحية، عيونهم تتقاطر شرا كلما صادفوه في طريقهم، كل واحد منهم أصبح يتحين فرصة الظفر بحسنات النهي عن المنكر .

"نانسي " هو الآخر وفي غفلة من الآخرين تغير كثيرا ، أطلق لحيته وألزم بيته يؤدي صلاته في خشوع، أحيانا كانت تنتصر الأنثى الموجودة في دواخله وتدفعه لارتداء النقاب الشرعي قبل كل صلاة ..رغم صدق إيمانه لم يكن يشعر بالسكينة الروحية ، كانت تنقصه صلاة مع الجماعة لكنه ظل يسائل نفسه:" مع من سأصلي صلاة الجماعة ...أمع النساء أصليها ..أم مع الرجال... ؟ "

عاش حيرة وجودية قاسية بين الأنثى التي حرص الجميع على أن تبقى حية تتحرك أمامهم وبين الرجل الذي حرصوا على ألا يظهر بل أرادوه متواريا مختفيا في أعماق ذاته،حيرة شاقة بين ماضيه القاسي بجرح لا يندمل وحاضره الإيماني ... كان في رحلته الوجودية المتعبة يشعر ببريق سعادة لأنه آمن بأنه أصبح أمام الله مثل كل أولائك الذين تزوجوه زواجا شرعيا لليلة واحدة، أولائك الذين كان يسمع منهم في الصباح :" نانسي أنتَ طالق.. طالق.. طالق.." الآن أعلنوا تقواهم وإيمانهم ورسموا على محياهم نعمة السكينة فالتزموا بالمساجد يؤدون الصلاة في أوقاتها ، هو أيضا عاش الرذيلة مرغما وتاب لله عليه توبة نصوحا ، يجتهد في الفروض والنوافل له خلوات إيمانية كثيرة يصوم كل يوم اثنين وخميس...يتصدق ويسارع لفعل الخير..

قبل آذان ظهر يوم الجمعة اغتسل ، لبس أجمل عباءة يملكها تطيب بالمسك ، شذب لحيته ، حمل بين أصابعه مسواكا ، نظر في المرآة وأحس بالرضا والطمأنينة حيث رأى صورة المؤمن المخلص .. في طريقه إلى المسجد كانت حركاته ومشيته المؤنثة تثير الانتباه وكانت تصل إلى أذنيه تعويذات وحوقلات المارة ، لم يعبأ بما كان يسمع وإنما قرّ قراره أن

يحصل على الأجر كاملا في هذا اليوم الفضيل ، خير أيام الله ، يسمع فيه خطبتي الجمعة ويصلي مع الجماعة.

نزع بلغته وبحركة أنثوية وضعها تحت إبطه ودخل برجله اليمنى محاولا أن يجد طريقا إلى مكان فارغ لمحه في الصفوف الأولى، جلس بين رجلين نظرا إليه نظرات فيها الكثير من الريبة وعلامات التعجب والغضب وصاح أحدهما في المصلين :"الله أكبر..الله أكبر.. إذا رأى أحدكم منكرا فليغيره.....يا عباد الله شاذ جنسيا دنس مسجدنا ...هبوا للدفاع عن حرمة بيت الله.."

ضج المسجد بالتكبير والتهليل ودعوات قتل هذا الشاذ..وجد نانسي نفسه محاصرا من كل الجوانب ، اسلم جسده لضربات انهالت عليه من كل جانب فسقط مغشيا عليه وتقدم نحوه عشرة من شداد الرجال وأقواهم وقبل أن يجهزوا عليه أفتى فيهم أحدهم فتوى قرشية جاهلية حيث قال لهم:" علينا أن نضربه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه بين الجميع ..فيفشل القانون في معرفة القاتل .." برق القتل في عيونهم وتحت أصوات التكبير أجهزوا على نانسي ،هشموا رأسه بضربات قاسية ..مات "أنور" المؤمن الصادق..رافعا شاهده نحو السماء.. تاركا لهم جسدا أرادوه بصيغة المؤنث.....

حياة بنكهة الشّعر والبطاطس

قبل انطلاق الموسم الدراسي تهيّأت روعة نفسيا وأصبحت على أتم الاستعداد لتقوم من مقعدها وتقف أمام كل زملائها وزميلاتها لتتحدث عن نفسها :" أنا روعة الحكيم ، أبلغ من العمر خمسة عشَر عاما... يناديني أبي " أفروديت " وهي إلهة الحب والجمال عند اليونان .."

نظرت المدرّسة إلى روعة نظرة إعجاب وأحست أنها أمام تلميذة من طينة فريدة فقالت لها : " حبيبتي ما هي مهنة والديك .. ؟ " كالعادة وبكثير من الثقة في النفس أجابت روعة فقالت :" أمي ربة بيت وأبي كاتب..." خيم صمت حذر على الفصل لكن سرعان ما كسرته المدرّسة وكأنها تريد أن تؤكد ما فهمت :" بالنسبة لأمك طبعا فهمت عملها ... ربة بيت .. لكن بالنسبة لأبيك لا شك أنّك تقصدين ..مهنة كاتب عمومي .. ؟؟"

أدركت روعة أن سيناريو السنوات الماضية سيتكرر وبدا لها وكأنها تحولت إلى سيزيف جديد وكم تمنت في قرار نفسها ، أن تحمل الصخرة وتصعد بها الجبل للمرة الأخيرة وقالت في نفسها :" متى سيدرك هذا المجتمع أن هناك مهنة اسمها كاتب ؟؟ " عادت من سفرها السيزيفي تحمل على

كاهلها أوزارها الثقيلة ..استرجعت أنفاسها وقالت: " أبي ليس كاتبا عموميا ..أبي كاتب بل شاعر مثل صلاح عبد الصبور وخليل حاوي وسميح القاسم.. وعبد الله راجع.. "

أحست المدرّسة بغربة غير معهودة .. لم تفهم كلام تلميذتها.. بعد جهد جهيد تمكنت من تجاوز حرجها وطرحت عليها سؤالا آخر :" ومن يكون هؤلاء يا حبيبتي .... ؟؟ " ارتسمت ابتسامة عريضة زادت من روعة روعة وقالت:" أستاذتي العزيزة ... إنهم شعراء عرب معاصرون.. أبي.. شاعر يشاطرهم التجربة ويقاسمهم عشقهم للشعر.. ويرى أنهم يمثلون بروميثيوس العصر الحديث.."

استعصى الفهم أكثر وتضاعفت حدة الإحساس بالحرج وبصوت خافت سألت المدرّسة روعة :" ومن يكون هذا البروميثيوس ؟؟؟؟ " بكل بساطة أجابتها :" هو من سرق النار من الآلهة وأهداها إلى البشر فعاقبته حيث سلطت عليه نسرا ينهش كبده وكلما تجدد الكبد تستمر المأساة ...." أحست المدرّسة بالخوف والهلع وظنت أن هذه التلميذة المتواجدة أمامها مصابة بمس وفكرت بجدية في أن ترقيها لكنها أجلت مشروعها وطرحت عليها سؤالا في استعجال:"و

ماذا يفعل أبوك بالشعر .. ؟؟ هل يبيعه .. ؟؟ أم تضعه أمك في القدر وتقدمه لكم في وجباتكم اليومية.. ؟؟"

أشفقت روعة على مدرّستها الحاجة يمينة التي اشتغلت أكثر من ثلاثين سنة في الفصل أنهكها شغب التلاميذ، حذقت درس "غسل الميت كفنه ودفنه" خبرت تفاصيل مراسيم الجنازة إلى أن هرب عنها الزمن وتركها تجتر أيامها وحيدة في مقبرة الحياة الموحشة ،قالت لها :" أبي لا يبيع الشعر وإنما يبيع البطاطس في الأسواق الأسبوعية .." ضج الفصل بالضحك والقهقهات ، لكن المدرّسة ظلت صامتة جلست على الكرسي وضعت رأسها بين كفيها وتمتمت :" لم أفهم ما تقول هذه الطفلة.. أكيد أن جنيا يسكنها وهو من يكلمني الآن.. " قرأت التعويذات بسرعة وسألتها :" أرجوك يا حبيبتي نعود من البداية وركزي معي ...هل أبوك شاعر ... أم بائع بطاطس .. ؟؟ أرجوك أريد أن أفهم ...رأسي يؤلمني.."

تكلمت روعة بهدوء واثق متجنبة أن تستقي ألفاظها من قاموس أبيها فقالت : " أبي في الأصل شاعر طبع ديوانين شعريين والثالث في طور الطبع ، لكنه يهوى بيع البطاطس في الأسواق الأسبوعية " فركت الحاجة يمينة عينيها ومررت

يديها على كل وجهها وكأنها في حصة تطبيقية لدرس التيمم .. استرجعت أنفاسها وقالت لها :" أ تعيشون بفضل الشعر أم بفضل البطاطس ؟؟ " على الفور ردت روعة فقالت :" ...في الحقيقة لم نطرح أبدا هذا السؤال في بيتنا ....مادام أننا نعيش السعادة المنشودة والفرحة العظيمة ...و مادام أن عشق أبي لأمي لا ينضب أبدا ..لا زال يكتب لها قصائد الحب ويتغزل بعيونها ولازالت هي تتغنى بأشعاره ..لم نطرح يوما سؤالك..أستاذتي العزيزة .. سؤالك لم يكن أبدا أساسيا بالنسبة لنا.." دون سابق إعلان صرخت الحاجة يمينة في وجه روعة قائلة لها :" وما هو الأساسي في بيتكم.. ؟؟ "

نظرت روعة نحو كل التلاميذ والتلميذات ثم توجهت بعينيها نحو مدرّستها ، علت وجهها ابتسامة رائعة وتكلمت عن الحب والحوار واحترام القيم الإنسانية ، تكلمت عن التفاؤل والفرح...تكلمت عن صحبة الكتاب وسحره ولم تنس أن تخبرهم بأنها تحفظ كل أشعار أبيها خاصة تلك التي قالها في أمها .

عم صمت جميل كل أركان الفصل، صمت لم تعهده المدرّسة يمينة .. كلمات روعة أسرت التلاميذ وسحرتهم .. أحست الحاجة يمينة وكأن خدرا يسري في عروقها ولأول مرة

تخلت عن الوعد والوعيد لإجبار التلاميذ على التزام هدوء شقي .....طلبت من روعة ألا تتوقف عن الكلام الجميل ورجتها أن تقرأ لها شعرا مما كتبه أبوها في عشق أمها .

بصوت ارتقت فيه الأحاسيس إلى سماء الإبداع الروحي قالت " أفروديت" :

عيون تذوب ألحاظها
شوقا وتيها
في طيها جنون المساء
وشرود الغروب في وجنتيها
في عمقهما يغرق البحر
ويشتعل القمر
يتوهج الصمت بكلماته الدفينة
فتنكتب جراحات الشفق في خافقي
وخواطري تلتهب عشقا
وحنينا لا يخبو مع أسف الغروب

أنصت التلاميذ للشعر سرت في أجسادهم لذته ونعومته ..سافر بهم إلى عوالم لم يعهدوها وأيقظ فيهم أحلاما هجرتهم .. التمسوا من روعة المزيد لأن أشياء بدأت تتغير في دواخلهم .. أحست المدرّسة يمينة بقلبها يتفتح كزهرة جميلة

يطلب الحب والعشق الطاهر ... لأول مرة وبعد ثلاثين سنة من التدريس تقرر أن تخرج من مقبرتها الموحشة ، تريد أن تحيى من جديد .. ذرفت دموعا شقت طريقها عبر وجنتيها وقالت بلغة امتزج فيها البكاء بالفرح :" ما أجمل الحياة بنكهة الشعر والبطاطس.."

دمغة أهل الجنة

-1

يستقر " حي المنشار" على هضبة ممتدة بحواشي المدينة الكبيرة، " الحي " عبارة عن فضاء عشوائي مفتوح على كل الاحتمالات، تتكدس فيه ساكنة اختلفت أصولها وجنسياتها، استوطنه مهاجرون من القرى المجاورة، أولائك الذين طردهم الجوع والفقر والجفاف والانتظار والفراغ والبطالة، أولائك الذين فروا من بيئاتهم القروية القاسية وسكنوا بيوتا طينية وأخرى شبه إسمنتية لا تحفظ كرامتهم ولا تعترف بخصوصياتهم، كما استوطن الحي مهاجرون جاؤوا من دول جنوب الصحراء،من النيجر ونيجيريا وغامبيا والكاميرون ومالي وتشاد ... لازالت هضبة " حي المنشار" قادرة على استيعاب المزيد من المهاجرين من القرى المنسية والدول الفقيرة...لازالت مفتوحة على كل الاحتمالات....

كل شيء في " حي المنشار" يخضع لمنطق العشوائية، لا مكان للنظام والانتظام، المنازل لا تتماثل في تصاميمها...في علوها وعرضها... نوافذها مبعثرة...أبوابها قزديرية قديمة

....كل منازل حي المنشار ورشات مفتوحة، لا تنتهي بها الأشغال والإصلاحات، الأزقة ضيقة وكأن " الحاج المنشار " استعمل منشارا حقيقيا عندما فصل القطع الأرضية .

تعج أزقة " حي المنشار" بالأطفال، ويبدو أنهم هم أيضا يخضعون لقانون العشوائية، يستنسخون بشكل عشوائي، يكبرون ويلعبون بشكل عشوائي ويرسمون قدرا عشوائيا ، يجبرون على حمل عيون فيها الكثير من العنف والقليل من دموع الطفولة، لا يتوقف ضجيجهم اليومي إلا بعد أن يهدهم التعب فيستسلمون لنوم شقي بدون أحلام حقيقية.

الصمت هو لغة رجال الحي عكس النساء اللواتي يجتمعن في ساحات لم يصلها بعد البناء ليتكلمن عن أي شيء دون أن يقلن أصلا أي شيء، عيون الرجال تشع منها شرارة العنف مستعدة لتقترف الأفظع في أي وقت .....الشيوخ احتلوا مراكز استراتيجية في مداخل ومخارج " الحي" ،حذقوا سر وتقنيات الملاحظة وبرعوا في رصد ما يحدث وما يمكن أن يحدث ، عندما يشعرون بألم في أعناقهم بسبب تتبع حركة الخارج والداخل من وإلى الحي ، يتبادلون حديثا مقتضبا حول الماضي ،حديث أشبه بآهات

وتنهدات عن أيام الخير ،كل شيء تغير، حتى الفحولة أصابها الخزي والعار ....

لن ينس سكان حي " المنشار" فضل بناء المسجد عليهم، بات الفضاء الوحيد الذي يخلصهم من المراقبة، كان يجبر الشيوخ على ترك مراكزهم في مداخل ومخارج الحي وقت الإعلان عن كل صلاة ولن ينس سكان الحي كذلك النضال المرير الذي خاضه الشيوخ من أجل بنائه بالجهة الشرقية للهضبة، كان عليهم أن يتوسلوا " الحاج المنشار" كي يستعمل منشاره من جديد لاقتطاع بقعة أرضية تخصص لبيت الله، وكان عليهم أن يتوسلوه مرة أخرى ليعينهم على توفير بعض مواد البناء، فكان رحيما بهم وأعطاهم عشرين كيس إسمنت وسعة شاحنة من الرمل، لكنهم وجدوا في اقتراب موعد الانتخابات فرصة ذهبية لتوفير كل ما يلزم من أجل بناء المسجد، أدركوا ذلك جيدا عندما حج إلى حيهم أناس لم يتعودوا على رؤيتهم، نظروا إلى شكل لباسهم وعطورهم وسياراتهم وطريقة كلامهم باستغراب كبير، أولائك الغرباء جاؤوا ليوزعوا عليهم الوعود التي تؤجل دائما إلى انتخابات قادمة لكنهم أصروا هذه المرة أن يكون بناء المسجد على رأس لائحة الوعود ثم المدرسة

والمستشفى وحدائق أين تهرب النساء من عنف الرجال والحياة. لقد بكى بعض الغرباء أمامهم وأذرفوا دموعا غزيرة والتزموا أمام الله بأن يوفروا لهم الكهرباء والماء والواد الحار .... لم يهتم الشيوخ بسيل الوعود، لأنهم خبروا الغرباء فطالبوا بالمسجد فقط ، وكان لهم ما طلبوا، لكن المسجد لم يشذ عن قانون العشوائية، فكان هو أيضا عشوائيا وظل ورشا مفتوحا وورقة انتخابية تجلب السماسرة كلما اقترب موعد جديد لانتخابات لم يفهموا أبدا جدواها.

لا دلالة للزمن " بحي المنشار" ، الدقائق والساعات والأيام والفصول والوعود والحملات الانتخابية تمضي وتمضي معها الحياة متشبثة بعشوائيتها، قد تتداخل الأشياء والفصول دون أن تتقاطع، قد تتوقف الدقائق والأنفاس دون أن تتعطل الأيام ، الحياة تسير رتيبة شاحبة، كل واحد يبحث عن خلاصه الفردي، الشيوخ يبحثون عن خلاصهم في المسجد وفي مراقبة مخارج ومداخل الحي، الرجال يبحثون عن خلاصهم في الصمت وفي شرارة العنف المنبعثة من عيونهم ، النساء يبحثن عن خلاصهن في حديث لا يجدي وفي فرار دائم إلى دواخلهن المنكسرة أما الأطفال

فقد وجدوا خلاصهم في العنف الذي يمارسونه على أجسادهم ...

-2

" السي لفقيه" أو " نعم أسي" كما يحلو للأطفال أن ينادوه تجاوز بقليل سن الأربعين ، قوي البنية تظهر عليه آثار نعمة الأكل، مهاجر وافد على الحي من إحدى القرى المجاورة للمدينة الكبيرة، يرتدي جلبابا أبيضا ويضع عمامة على رأسه وينتعل بلغة صفراء، يعتني بلحيته اعتناء غير مفهوم، يصففها ويشذبها، فهي الشيء الوحيد الذي لا يخضع لنظام العشوائية بالحي .

يحظى "السي لفقيه" باحترام وتقدير سكان "حي المنشار" سواء كانوا من الوافدين من القرى المجاورة أم من الدول البعيدة الفقيرة ، يقوم بتنظيم كل مناسك العبادة، يؤم المصلين ويؤذن فيهم ويفصل بينهم ويفتي في أمور الدين والدنيا ويفقه السكان في أمور العبادة حيث يخصص درسين خلال كل أسبوع، ليحدثهم في أمور الدين ويجيب عن أسئلتهم واستفساراتهم .

استحوذ " السي لفقيه" على ثقة سكان الحي، ادخلوه بيوتهم ، تقاسموا معه أكلهم البسيط ولم يمنعوا نساءهم

وفتياتهم من حضور دروسه وطلب كراماته، خاصة وأنه كان يحدث النساء من وراء حجاب وفق ما تنص عليه الشريعة الإسلامية .

اختار في درس هذا الأسبوع أن يحدثهم عن علامات الإيمان التي يطمئن بها القلب ولا تخطئها العين، فعددها أمامهم وكانت الصلاة في وقتها أول هذه العلامات الإيمانية ثم عرج على التقوى والعفة والإكثار من ذكر الله، خاطبهم بصوته القوي:" إذا اجتمعت هذه العلامات في شخص فقد استحق دمغة أهل الجنة ودخلها من أبوابها الثمانية بدون حساب " ارتسمت علامات استعصاء الفهم على وجوه الحاضرين وأحس " سي الفقيه" بضرورة الاستزادة فوجه أصبعه إلى وسط جبهته وصاح : " الدمغة ها هي موجودة على جبيني منحني الله إياها لأنني رجل مؤمن حظيت بشرف جمع كل علامات الإيمان .." لكنه سرعان ما انتبه إلى جبهة " الحاج المنشار" المتواجد ضمن الحاضرين بالصف الأول، فاستدرك الأمر وأشار بأصبعه :" انظروا إلى جبهة هذا الرجل التقي " الحاج المنشار" هو الآخر يحمل دمغة أهل الجنة، هبة من الله لنقائه وتقواه، بشرى له بالجنة.... بشرى له بالجنة .."

استرسل " السي الفقيه " في الحديث عن نعيم الجنة وما ينتظر المبشرين بها،:" لكل واحد سبعون امرأة من حور العين وما أدراك ما حور العين، يسهرن على تلبية الطلبات والرغبات الجنسية التي لا يمكن أن تخطر على بال، أما إذا اشتهى أحد منكم غلمانا فله ما شاء منهم كل غلام آية في الجمال ..أبلق أمرد يفعل فيه ما شاء، ناهيك عن وديان من الخمر المعتق، لذته لا تساويها لذة ، نشوته لا تساويها نشوة، وستسكنون قصورا واسعة مصنوعة من ذهب ومرصعة بالبلور والمرجان، تلبسون حريرا وتنامون على الحرير وتتوسدون الحرير، تأكلون أشهى الأطعمة والفواكه".

عم الصمت واستولت على الحاضرين أحلام فردوسية، أسالت لعابهم حتى تدفق شلالا من أشداقهم، هناك من شرع في التهام الأكل اللذيذ وشرب الخمر المعتق وهناك من دخل قصره الفسيح وهناك من جمع حوله حور العين وهناك من استماله الغلمان.....كل مؤمن تاه في سراديب حلمه واستفاق على سؤال مستعص :" كيف السبيل إلى دمغة أهل الجنة ؟؟ "

حضرت بعض نساء وفتيات الحي درس الأحلام الفردوسية واستيقظت فيهن الإحساسات الممنوعة

واستفاقت في دواخلهن الرغبات المحرمة واشتقن إلى خدمة أهل الجنة لعلها تنسيهن معاناتهن القاسية مع أزواجهن. كانت سهام متواجدة بين الجالسات في الركن الضيق من المسجد وراء الحجاب.. سهام فتاة في مقتبل العمر محجبة يفوح منها عبق الأنوثة، عيناها سهام أصابت قلوب كل رجال وشباب "الحي ". حينما أنهى"سي لفقيه" درسه الوعظي المليء بالشبق الجنسي، مكثت سهام في مكانها، لم تخرج مع النساء بقيت تنتظر أن ينسحب كل الحاضرين، وبصوت خافت من وراء الحجاب أثارت انتباه الفقيه حيث قالت:" سيدي الفقيه أريد أن أحدثك في أمر ضروري " لبى الفقيه الدعوة وسألها عن اسمها فوجده يوحي بضروب من العشق أما نبرة صوتها فقد أشعلت بداخله لهيب الرغبة، وفي لحظة غير معلنة رفع الحجاب الذي كان يفصله عن سهام وكاد عطرها الأنثوي الطبيعي أن يسقطه أرضا ليلثم قدميها، تمالك نفسه وسألها :" في ماذا تريدين أن تحدثيني يا بنيتي ؟ " استجمعت كل قواها وحكت له عن مغامرتها الغرامية مع شاب أعجب بطهارتها واستقامتها فقرر أن يتزوج منها فور استقرار أوضاعه المالية. تكلمت سهام بعفوية طفولية ورقة وطرحت في الأخير على الفقيه سؤالا

يؤرقها :" سيدي الفقيه لم اعد أعرف كيف أتصرف، هل هذه العلاقة حلال أم حرام ؟"

استعان الفقيه بالصمت برهة من الوقت ليخفي رغبته الجامحة في ملامسة وجهها الملائكي وتمرير يديه على جسدها الذي يفيض أنوثة، بلع سيلا جارفا من لعابه المتدفق من حواشي فمه وخاطبها باتزان مصطنع : " اسمعي يا بنيتي أنت فتاة طاهرة نقية، لا تكوني فريسة لذئاب بشرية فانية تنهش جسدك، منحك الله جمالا ملائكيا لأنه اصطفاك بين كل فتيات ونساء " حي المنشار" لتكوني في خدمة أهل الجنة، أولائك الذين وضع الله على جباههم الدمغة الشريفة المنورة، ابشري يا بنيتي ستكونين ضمن صفوة حور العين بجنة الخلد، فلا تتركي أيادي البشر تدنس طهارتك وعفتك وتغير قدرك ."

استمعت سهام باهتمام كبير لما قاله الفقيه وأحست بنشوة روحية حلقت بها في الفضاء الواسع وعرجت بها إلى عوالم الجنة والخلود ثم استفاقت من غيبوبتها وسألت الفقيه :" ماذا علي أن أفعل الآن ، هل أتخلى عن ذلك الشاب وأحفظ جسدي لأهل الجنة ؟ أرشدني أرجوك أيها العالم الجليل " لم يتأخر الفقيه عن تقديم إرشاداته

وتوجيهاته لسهام وحثها على أن تتدرب منذ الآن على خدمة أهل الجنة المنعمين.

بعفوية ساذجة أومأت بحركة من رأسها معلنة أنها تقبل مصاحبة الفقيه التقي إلى غرفته المتواجدة أعلى المسجد، وأفصحت ببراءة الطفولة أنها تستعجل خدمة أهل الجنة أصحاب الدمغة الشريفة ومستعدة لتلبية رغباتهم، لا تبغي الآن إلا رضا الله وبركة الفقيه .

دخلت الغرفة ولمحت في الركن المظلم زوجة الفقيه وقد استلقت على فراش بئيس، كان الفقيه دوما يردد أمام المصلين أن الله ابتلاه بزوجة عمياء صماء بكماء وهو راض بهذا الابتلاء ويعتبره امتحانا من الله أراد أن يختبر به مقدار قوة إيمانه ، فتقوت ثقة الناس فيه بل هناك من حسده على هذا الابتلاء.

قاد الفقيه سهام نحو الركن المضيء من الغرفة، أجلسها وجلس بجانبها، وسمح لكفيه أن ترسما تضاريس الجسد الأنثوي الطري، هاجت غرائزه البهيمية وقال لها : " الله يأمرك بأن تنزعي ثيابك، كما يأمرني بأن أنزع جلبابي وعمامتي ليختبر مدى استعدادك على خدمة أهل الجنة...ابشري بالجنة يا بنيتي..."

ما هي إلا لحِظات حتى وجد نفسه أمام جسد ندي عار، يفعل فيه ما شاء باسم الإرادة الإلاهية، رغم اندفاعه وهيـجانه البهيمي حرص الفقيه على ألا يترك أي أثر للعنف الجنسي الذي مارسه على الجسد الطري، اشبع قسطا من حيوانيته ثم أمرها بان ترتدي ملابسها كما ارتدى هو الآخر ملابسـه ولم ينس العمامة وقال لها : "ابشري ...ابشري ...سيتهافت عليك أهل الجنة أصحاب الدمغة الشريفة ...أنا راض عليك والله راض عليك وملائكته كذلك إلى يوم الدين ، سيجعل منك الله سيدة حور العين، لا يمسك إلا مطهر مثلي..."

قبل مغادرتها الغرفة أوصاها :" لا تفشي سرك لأي أحد ، لقد انتقاك الله من بين سائر نساء الحي، الحسد يعمي البصائر يا بنيتي، احذري عمل الشياطين.." قبل خروجها من الغرفة وضع على جبينها قبلة هزت أركان غرائزه الحيوانية من جديد ومنحها بركة تقبيل الدمغة الشريفة التي وضعها الله على جبينه .

-3

استقر مسكن " المعطوب" قرب مسجد الحي، المسكن عبارة عن غرفة ومطبخ صغير وشبه مرحاض لا

يحفظ الخصوصية الفردية ما دفع بفريدة إلى أن تضع على مدخله حجابا يستر بعضا من عورة الأسرة .

كان "المعطوب" واسمه الحقيقي " عبد اللطيف" مياوما في مقاولة بناء، سقط من أعلى جدار فوجد نفسه معطوبا، مقعدا، يجتر أيامه ومعاناته ولم تجد زوجته "فريدة" حلا سوى الخروج إلى العمل... رغم كفاحها المستميت بتر الأطباء الرجل اليمنى لزوجها بعد تعفنها...

ضاق العيش على الأسرة ولم يكن عمل "فريدة" كافيا للتغلب على الحاجة، كانت تحاول أن توفر أدنى شروط العيش لزوجها وابنها "أيمن"، لم تتجاوز بعد الأربعين من عمرها صابرة على التحرش الجنسي ومشقة العمل بمقهى شعبي، كانت تقضي ساعات طويل في غسل الأواني وتحضير الشاي للزبائن وسماع سيل من كلمات وجمل الغزل، في كثير من الأحيان كانت ترتسم على ملامح وجهها علامات استغراب مما يلقى على أذنيها من كلمات تسعى إلى إثارة الغريزة الجنسية، لأنها تدرك أن جسدها لم يعد ذلك الجسد الذي يحرك الرغبة لدى الرجال، لقد أصابه الهزال وضمر صدرها وفشل جلبابها في رسم تضاريس نهدين غيبهما الحزن والتعب والجوع ، كما لفحت الشمس وجهها وخطت

عليه تجاعيد غائرة... أحست أن كل شيء مات في هذا الجسد، نسيت اللذة الجنسية، لم تنم بجانب زوجها منذ سنوات طويلة. الحياة الصعبة برمجت عقلها ليستجيب للواجب فقط ويلغي أية رغبة ، لم يعد بمقدورها الإنجاب مرة أخرى فاكتفت بابنها " أيمن" واعتبرت ذلك حكمة إلاهية لتستطيع تلبية احتياجات " المعطوب" وهي كثيرة تستلزم جهد الجسد والجيب في نفس الوقت .

أصبح "أيمن" ابن العاشرة يقاسم أمه أعباء البيت، توقف عن الدراسة وأوكلت إليه مهمة السهر على راحة أبيه في غيابها، لكن بمجرد ما تصل " فريدة" إلى البيت، يخرج أيمن مسرعا في اتجاه المسجد، يجلس في الركن المواجه للمدخل يراقب الوافدين وينظر إلى جباههم باحثا عن " دمغة أهل الجنة "، كان ينبهر كلما دخل الإمام " سي لفقيه" وقد ارتسمت على جبينه علامة دائرية لا تخطئها العين وكم تمنى أن يجد نفس العلامة مرسومة على جبين أبيه، فهو يدرك معاناته اليومية ويريد له الجنة ليعيش النعيم بين حور العين والغلمان ووديان الخمر والعسل وجبال من الفواكه التي لم تعرف طريقها إلى مائدتهم منذ زمن لا يستطيع أن يتذكره .

كان " أيمن " يعيش في أغلب الأحيان أحلام يقظة، أحلامه تختلف عن باقي أحلام الأطفال ، أحلامه كانت تحلق في أجواء الجنة أين كان يرى أباه يمشي على رجليه، راسما على شفتيه ابتسامة روحية، وبجانبه أمه وقد تحولت إلى حور عين رائعة الجمال يتمناها كل أهل الجنة، لكن الألم كان يعتصره كلما عاد إلى الواقع لأن الله لم يمنح بعد أباه الدمغة المنشودة وحالته الصحية تسوء يوما بعد يوم، وقد يموت في أية لحظة، ولا شك أن مآله سيكون النار بما أنه لا يحمل تلك الدمغة الشريفة التي طالما تباهى بها "سي لفقيه" أمام كل المصلين.

بعد أن أدى "أيمن" صلاةّ المغرب ورفع يديه الصغيرتين إلى السماء متمتما بكلمات غير مفهومة، رجع إلى البيت، واتجه إلى الركن الذي يستلقي فيه الأب " المعطوب" ألقى نظرة على الجبهة العزيزة، لا وجود للدمغة الشريفة لم يرسمها الله بعد ... أحس بحزن عميق لكنه استغل دخول أبيه في ما يشبه الغيبوبة، لا يعرف هل هي من سكرات الموت أم مجرد نوم عميق، فاتجه نحو المطبخ وبعد برهة من الوقت، قاد يده نحو جبهة أبيه وحط عليها ملعقة ملتهبة أحدثت حرقا دائريا غائرا، نظر إليه "أيمن" قبله قبلة

فيها الكثير من الارتياح وهمس في أذنه اليمنى :" الآن أصبحت يا أبي من أهل الجنة ...تستطيع أن ترحل إلى قصرك هناك ....ستلتحق بك أمي قريبا..."

أنا بحاجة إلى هواء نقي

سألها:" ما هي أحلامك في الحياة ؟ " ردت عليه فقالت :" لقد انتهى عهدي بالأحلام ...بانتهاء عهد الطفولة والمراهقة..أنا أشتغل الآن على تحقيق مشاريعي."

ارتسمت على وجهه علامات استفهام كبيرة لأنه لم يستسغ أن توجد حياة بدون أحلام ... الحياة خلقت أصلا لكي نحلم فهو لا يتوقف عن الحلم في يقظته ومنامه حتى حديثه مع "سولاي" كان قبل ساعات مجرد حلم وأحس لأول مرة أن الخمسة دراهم التي سيدفعها لصاحب " السيبر" لن تذهب سدى . سولاي... اسم على مسمى، عرفها على الانترنيت منذ ساعات فقط وأشرق حبها في قلبه، سولاي الشابة السويسرية الفائقة الجمال استبدت بأحلام يقظته ... لن يستطيع الليلة أن يطرد وجهها الملائكي من على وسادته سيناجيها وتناجيه، سيتبادلان القبل وسيجعل من فحولته الشرقية ورقة رابحة في معادلة حبه ، عبد الباقي لازال مادة جنسية خام .

مرغما أوقف شلال أحلامه وسألها بكل عفوية :" وما هي مشاريعك ؟" ردت بطلاقة " آه ..مشاريعي ...كثيرة أحاول أن

أنظمها قدر المستطاع .. لكنني قررت هذه السنة أن أضبط تقنياتي في القفز بالمظلة ..علي أن أعيد النظر في مواعيدي لأقفز مرات عديدة من ارتفاع شاهق...أنا أشتغل بجدية...لأحقق كل الأهداف.."

ابتلع عبد الباقي ريقه وطال صمته، فطبطبت سولاي على الميكروفون وقالت له :" كوكو ..هل مازلت هنا ؟ ...طيب... السنة المقبلة ستكون حاسمة في حياتي لأنني قررت أن أتوقف عن العمل لمدة سنة كاملة لأقوم بجولة عبر العالم على دراجتي الهوائية..هذا المشروع يأسرني لأنني أريد أن أكتشف الثقافات الإنسانية المختلفة..أنا متأكدة من أن الرحلة ستكون ممتعة ... التعب لن يساوي شيئا أمام لذة المعرفة والاكتشاف..و لكن قل لي أنت ...ما هي مشاريعك في هذه السنة.. ؟"

سؤال محرج عمق جراح عبد الباقي الشاب الذي تجاوز الثلاثين من عمره ولازال يعيش في بيت أبويه ،مجاز معطل عن العمل تظهر على وجهه الشاحب كدمات نفسية عديدة ..كان بوده أن يكذب على سولاه لكن عفويته غلبته وأجابها :"..أنا ...لا أحمل مشاريع ...لدي أحلام كثيرة مؤجلة لا تخرج عما كان يحلم به أبي وعمي وخالي....أحلم بوظيفة متواضعة

.. أحلم أن تجد لي أمي زوجة مطيعة لا تبيت الملائكة تلعنها ...أحلم أن تكون لي شقة بسيطة، لا يهم إن كانت تحفظ كرامتي أم لا ... أحلم بأن أجد في جيبي نقودا لأؤدي الحساب للنادل.... أحلم بأن ترسلني إدارتي إلى الحج في خريف عمري وأقضي ما تبقى لي من العمر مرتاح البال...أنتظر الموت بقلب مطمئن ..."

استغربت سولاي ، لم تفهم أشياء كثيرة ،أحست بغربة هذا الإنسان في هذه الحياة وشعرت بألم حاد يعتصر أحشاءها فأرادت أن تغير الموضوع وتنقل عبد الباقي إلى أجواء أخرى ربما تكون أرحم من هذه الأحلام الغريبة فسألته :"هل مررت بتجربة حب في حياتك ؟" لولا الخجل لقال لها :" أنت أجمل تجربة حب في حياتي... أنت أحلى ما يمكن أن أصادفه في الوجود.. سأظل وفيا لحبك ما حييت.." لكنه تماسك نفسه وقال لها:" آه الحب ... هناك تجربة حب عظيمة في حياتي أحببت امرأة واحدة وسأستمر وفيا لحبها...أنا أحب أمي ..و أكره أبي..أحب أمي لأنها المرأة الوحيدة التي تشعرني بالأمان، كنت وأنا طفل أختبئ وراءها كلما زار ضيف بيتنا..استمررت في مص حليب ثدييها إلى أن كبرت أسناني..لازلت وأنا في الثلاثين لا أطمئن إلا حينما أضع رأسي

على ركبتيها ..أتلذذ بمداعبتها لشعري لكنني أكره أبي ، لماذا ؟؟ لأنه كان يسرق مني أمي ليلا ، يقودها إلى الركن المظلم من الغرفة وعندما يتأكد من أن كل إخوتي ناموا يستلقي عليها ... يصدر منه صراخ ويصدر منها أنين .. كان المشهد يرعبني والأصوات تخيفني وتكاد تخنقني .. كنت أظن أن أبي يأكل أمي كل ليلة ويعيدها إلى صورتها في الصباح ليأكلها مرة أخرى ومرات عديدة، فزاد كرهي له..و أصبحت أخاف من أن يقودني إلى الركن المظلم ويستلقي عليّ ليأكلني..."

توسلته سولاي ورجته بأن يتوقف عن الكلام وقالت له:" أكاد أختنق ، أنا بحاجة إلى هواء نقي.." قطعت الاتصال وتركت المكان تتصارع فيه الأحلام والرغبات ....خرج عبد الباقي من " السيبير" بعد أن حفر كل تفاصيل جسد سولاي في ذاكرته، اتجه إلى البيت وقرر أن يواصل الحديث مع معشوقته التي سكنت وسادته...

بعد صلاة العشاء اقترب منه الشيخ المودودي وبصوت خافت سأله :" ألا تتزوج ..أ سي عبد القادر ؟؟ "مرة أخرى وجد نفسه أمام السؤال الذي طالما تهرب منه و بنظرات تائهة رد قائلا :" كيف لي أن أتزوج وأنا أعيش مع والدتي العجوز في غرفة واحدة لا تكاد تسعنا.. ؟! " حاول الشيخ المودودي أن يخفف عنه وطأة الحرج المتعب فقال له :" أنت رجل طيب ومؤمن ..و لن ينساك الله.."

كل المصلين الذين كانوا يقصدون مسجد الشهداء كان لهم نفس الرأي كانوا يحبون عبد القادر الخضار لأنه لم يكن يتأخر عن أداء صلاته في وقتها مع الجماعة كما كان حريصا على تلبية كل طلباتهم وكانوا يتحدثون بإعجاب كبير عن برّه بوالدته العجوز، فهو لم يتخل عنها وآثر أن يعيش معها في غرفة ضيقة وسط حَيّ هامشيّ مكتظ بالسكان والآفات الاجتماعية .

في بداية عهده اشتغل مساعد خضار..تعلم المبادئ الأولية للتجارة وعندما اشتد عوده قرر أن يشتغل لحسابه الخاص .. اشترى عربة وحمارا وفواكه وخضرا ،و لزم مسجد

الشهداء يبيع سلعته ويؤدي صلواته، لكنه كان يعتبر نفسه مسلما ضعيفا لأنه لم يتزوج بعد كما أنه لا يعرف القراءة والكتابة ..كان يشعر بحرج مزدوج يتعاظم عندما يحضر حلقات قراءة الورد اليومي.. يتابع بعينيه شفاه المقرئين دون أن تكون له القدرة على تلاوة القرآن معهم.. مع ذلك .. كان عبد القادر من الحامدين الشاكرين الباحثين عن الجنة المختفية تحت قدمي والدته .

كان الشيخ المودودي يراقب حركات وسكنات عبد القادر الخضار وكثيرا ما كان يطيل النظر إليه ويتمتم بين شفتيه بكلام غير مفهوم وغالبا ما كان ينهيه بقوله :" ولم لا.. ؟! " بعد الانتهاء من صلاة العشاء اقترب منه وقال له :" يا عبد القادر عليك أن تقرأ معنا الورد اليومي....فيه بركة وأجر عظيم.." بصوت خافت رد عليه:" ما أنا بقارئ.. ؟ " هدأ الشيخ المودودي من توتره الواضح وحاول أن يبدد حرجه وقلقه فقال له :" أنا مستعد لأعلمك القراءة والكتابة ..و لا محالة ستصبح مسلما قويا.."

شعر عبد القادر بالسعادة تغمر كل كيانه فتوالت الليالي وتراكمت الحروف والجمل وأضحى قادرا على قراءة الورد اليومي بل عرف أشياء كثيرة عن الجنة والنار وحرص

الشيخ المودودي على أن يرسم في ذهنه أدق تفاصيل الجنة إلى أن أصبح مهووسا بأنهارها وخمورها وفواكهها وألبستها وقصورها لكن الحديث عن حور العين شدّ أنفاسه وأشعل فيه نيران الرغبة الجنسية إلى درجة أنه كان يستعجل الرحيل ليلاقي نساء أبكارا لا يمسسهن إلا الشهداء.

تمكن الشيخ المودودي من صقل ونحت شخصية عبد القادر الخضار وملأ كل فراغاتها ..نضج بداخله الإحساس بالفحولة والكمال الجنسي والاستعداد للفعل وكلما أحس الشيخ بفتور رغبته الجنسية كان يأمره بتجديدها ويقول له :" عليك يا عبد القادر بتناول الفياغرا ...حور العين لا يعشقن المسلم الضعيف...يجب أن تكون مستعدا ليوم اللقاء... ستمارس الجنس على سبعين حور عين بوصيفاتهن...و إلى الأزل... يجب أن تكون قويا ...هل أدركت الآن جسامة المسؤولية التي ستتحملها في الجنة...إنها مسؤولية الشهداء.. "

أصبح عبد القادر يعتقد أن عضوه التناسلي أثمن هبة إلَهيّة تحققت له بفضل برّه بوالدته وكثيرا ما كان يضع مرآة أمام ذكره ينظر إليه بإعجاب لساعات طويلة ويتمتم بصوت مهموس :" أحمدك يا رب على ما وهبتني....لا شك أن كل

حور العين يترقبن وصولي إلى الجنة .." أدرك الشيخ المودودي أن عبد القادر بات مؤهلا لليوم الموعود وجاهزا لتحقيق الشهادة فقال له بعد قراءة الورد اليومي :"ابشر يا عبد القادر ..نساء الجنة يذكرن اسمك في السماء ويشتقن للقائك ..ابشر أيها الرجل المؤمن.." لمع بريق الفرح في عيني عبد القادر وقال :" أنا كذلك يأسرني الشوق والحنين... كيف لي يا شيخي الفاضل أن ألتحق بنساء الجنة .... ؟" اقترب منه الشيخ وقال له :" الشهادة هي الطريق المضمون للالتحاق بنساء الجنة .." بلهفة كبيرة سأله عبد القادر:"و لكن كيف أحقق الشهادة يا شيخي ؟" رد المودودي على الفور:" يجب يا ابني ..أن تفجر نفسك وسط الكفار الذين أفسدوا حياتنا..و دنسوا ديننا.."

لحظات صمت قاسية اختلط فيها العزم بالخوف كسرها فجأة سؤال فيه الكثير من الترقب :" أ يوجد بيننا كفار... ؟! أين هم.. ؟! أين أجدهم.. ؟!" رد الشيخ :" إنهم موجودون في المقاهي والملاهي والملاعب والمسارح والمدارس والجامعات والمتاحف والأسواق وفي المساجد أيضا...إنهم موجودون في كل مكان.." لم يفهم عبد القادر المقصود من هذا الكلام ، لكن الشيخ المودودي دفع به نحو اليقين فاقتنع بضرورة

تفجير جسده بإحدى مقاهي وسط المدينة المعروفة باكتظاظ مرتاديها وقال له الشيخ :" كل الكفار الذين ستقتلهم سيدخلون جهنم..أما أنت فستكتب مع الشهداء والصدّيقين ..ستجد حور العين ووصيفاتهنّ في انتظارك لتلج الواحدة تلو الأخرى...عليك أن تستعد ولا تنس أن تتناول قرصين أو ثلاثة من الفياغرا ..نساء الجنة يحببن الرجل القوي..لا تنس هذا.."

لمح الشيخ المودودي بريقا في عيني عبد القادر فأدرك أنه بلغ الدرجة القصوى لتقبل كل الأوامر ..... وأصبح جاهزا للانتقال إلى الفعل.. سلمه إلى فريق متكامل من الشيوخ والمدربين يعلمونه طرق التنكر والتنقل والتعامل مع الحزام الناسف وطريقة تفجيره كما وجد نفسه أمام " كوتش " متخصص في نكاح نساء الجنة علمه طرق وتقنيات مضاجعة حور العين ووصيفاتهن .. غيبوا عقله واستغلوا ظمأه الجنسي ... لم يتركوا له وقتا للتفكير كما منعوه من التراجع ... وضعوه أمام خيار واحد وأوحد : " الشهادة ".

بعد أيام من التدريب استقبله الشيخ المودودي هنأه وبشره بالجنة ، طوقه بحزام ناسف..قرآ معا بعض الآيات من القرآن ثم طالبه بتلفظ الشهادتين وناوله ثلاثة أقراص

فياغرا وكوب ماء وقدم له غطاء حديديا يضعه فوق عضوه التناسلي ليحفظه من قوة الانفجار حتى يظل منتصبا جاهزا حين يعبر إلى الجنة، لكن أقراص الفياغرا لم تمهله إذ كان أثرها سريعا ،فعلت فعلها وانتصب ذكره انتصابا غير عادي تحت الغطاء الحديدي ذي الجوانب الحادة.

حوالي الساعة الرابعة مساء وصل بصعوبة إلى المقهى الكبير ، أحس بألم حاد بين فخديه حاول ألا يثير الانتباه ،استجمع كل ما تبقى له من قوة ،صعد بمشقة على طاولة وصاح:"الله أكبر..الله أكبر.." داس على زر الحزام الناسف ..لم يسمع أي دوي للانفجار بل سقط عبد القادر من على الطاولة مغمى عليه ،لم يفهم مرتادو المقهى ما حدث أمامهم غير أن اثنين من رجال الحراسة انقضا عليه إلى أن حضر رجال الشرطة الذين لاحظوا دماء غزيرة تسيل من بين فخديه فقرروا نقله إلى المستشفى عبر سيارة الإسعاف بعد أن نزعوا حزامه الناسف.

في الصباح استفاق عبد القادر من غيبوبته ..لم يفارقه الألم الحاد المستقر بين فخذيه تلمس بيده مكان الألم فوجد ضمادات تحيط بعضوه التناسلي لم يفهم ما يقع له جال

بعينيه في أرجاء الغرفة البيضاء، ظن أنه عبر إلى الجنة ثم مال بعينيه ليتتبع حركة طبيب بلباسه الأبيض الناصع وقد ولج الغرفة فظنه ملك من ملائكة الرحمان تم تسخيره لخدمته فقال له :"أنا الشهيد عبد القادر ...لقد وعدني الشيخ المودودي بسبعين حور عين مع وصيفاتهن..أريدهن الآن أمامي..لقد شربت الفياغرا ..و أنا مستعد..."

ارتسمت علامات استغراب على وجه الطبيب لم يفهم هذا الكلام الغريب ظن أن وقع الحادث ذهب بعقل عبد القادر ثم حاول أن يهدئ من روعه ولم يستطع أن يخفي عنه الحقيقة القاسية فقال له:" لقد بترنا عضوك التناسلي لإنقاذ حياتك...لم تنجح عملية إرجاعه إلى مكانه ...سيكون عليك أن تعيش بقية حياتك بدون ذكر.." لم يستوعب ما سمع وفي حالة هستيرية صاح:" أنا الشهيد عبد القادر..متى أصبحتم تجرون عمليات جراحية في الجنة.. ؟! أريد ذكري الآن..جئت به منتصبا إلى الجنة.. أريده الآن ..أنا بحاجة إليه..."

حب أول نظرة

من خلف شاشة الكمبيوتر قال لها:" منذ أول اتصال أحسست أن حبَّك يستبد بقلبي... سَكنْت أحلام يقظتي ومنامي.."

كانت إلهام تشاركه نفس الإحساسات لكنها كانت تتفوق عليه في التعبير بلغة يمتزج فيها لهيب الحب بالشاعرية المتدفقة...كانت تكتب قصائد شعر حَفِظَ فريد كلَّ حركات حروفها فتحولت في ذاته إلى ألحان خالدة..أعطت معنى لحياته.

كان " الكمبيوتر" أو "مرسول الحب" كما يحلو لهما تسميته هو ضامن استمرار تدفق الحب بينهما...لم تسمح لهما ظروفهما الاجتماعية والأسرية باللقاء رغم أنهما كانا يقطنان نفس المدينة ...اكتفيا بتبادل الرسائل والصور عبر المواقع الاجتماعية ومع كل اتصال كان حبهما يكبر ويكبر إلى أن تحول إلى شلال هادر،و لم يعد هناك حيز للصبر ...انتهى الصبر وانقضت كل حيلة لإرجاء أول لقاء بين الحبيبين القابعين خلف شاشة لم تعد قادرة على نقل شحنة الحب التي تحولت إلى كتلة ثلجية يزداد حجمها كلما تدحرجت من القمة نحو السفح...

قال لها ذات ليل حاسم :" حبيبتي ...لقد ملَّ الصبر من صبري...أريد أن أراك...تريد يداي أن تلمس وجهك...لم تعد لي سلطة على قلبي.. سيخرج يبحث عنك في كل قلوب فتيات المدينة .." سمع أنفاسها من خلف الشاشة كنسيم ينعش ظَمأَه الملتهب ... بعد تنهدات ساخنة قالت له:" حبيبي ....تشتاق أنفاسي لأنفاسك..تعبت خلف هذه الشاشة التي تريد أن تسلبني أنفس ما جادت به الحياة عليّ...وددت لو أن جسدي يتفكك إلى ذرات تخترق هذا الكمبيوتر ...تسابق الضوء عبر حباله وأسلاكه.... وددت لو أن جسدي لا يتوقف عن التفكك إلا وأنا بجانبك...أتكون من جديد ذرة فذرة...وددت لو..."

قاطعها فريد وأصر على اللقاء...بعد تردد غالبت خوفها وقالت له:" لكن كيف سأعرف أنك أنت حبيبي ؟ " رد مسرعا:" سأحمل في يدي باقة ورد أحمر داكن وأضع على عينيّ نظارات سوداء...و أنت كيف سأعرف أنك أنت حبيبتي ؟ "ردت في انشراح تام:" سأحمل وردة حمراء داكنة..وردة واحدة.....و سأضع نظارات سوداء مثلك."

كلما اقتربا من الحديقة تثاقلت الخطوات وارتفع نبض قلبيهما...إلى أن لاحت لمرافقتها "سوسن" ملامح شابين

واقفين أحدهما يحمل باقة ورد أحمر داكن فقالت لإلهام :" إنه هناك يقف مع شاب وسيم...هو كذلك وسيم بنظاراته السوداء..."

استقبلت سوسن مرافق فريد بابتسامة إعجاب متبلة بتوابل "حب أول نظرة" بادلها نفس الابتسامة متبلة بنفس التوابل...تقاطعت نظراتهما وانشغلا بحديث قلبيهما ..و نسيا مهمتيهما...بعد انتظار وصمت ..مدت إلهام الضريرة يديها تتلمس طريقها نحو حبيبها..بينما مدَّ فريد الضرير يديه في الاتجاه المعاكس يتلمس طريقه نحو حبيبته...تاه الحبيبان الضريران بينما وجدت سوسن حبيبها واستسلما للقبلات تحت شجرة وارفة الظلال ...

يونس المثليّ

ليلا.. وسط البحر المتوسط في اتجاه اليونان،بدأ القارب المهترئ يئن تحت ثقل الكتلة البشرية الهائلة،معلنا عن قرب تفكك أخشابه...كانت أصوات المهاجرين السريين،تحاول أن تعلو على أصوات الأمواج المزمجرة... لكن سرعان ما بدأ البحث عن الخلاص الفردي،فعمت الفوضى المكان الضيق غير المستقر ولاحت علامات كارثة وشيكة .

وسط أهوال الموت تمكن يونس القادم من الجنوب أن يهدئ من روع المهاجرين..استقر القارب دون أن يتخلى عن أنين أخشابه ،فخاطبهم قائلا :"اسمعوا...إذا استمرَرنا على هذا الحال من الفوضى سينقلب القارب وسنغدو وجبة سائغة لأسماك القرش التي تحوم حول قاربنا...علينا أن نفكر في حل ..و بسرعة.." ثم قال :" القارب متهالك لا يتحمّلُنا جميعا..سنموت إن مكثنا كلنا هنا...علينا أن نفكر بجدية في الحلّ..."

تداول المهاجرون الأمر برعب وتناسلت الاقتراحات الممتزجة بالدموع المالحة ملوحة البحر وهو يحكم قبضته على القارب الهش إلى أن نطق أحد السوريين فقال :"يجب أن نضحّي

بمائة وخمسين منّا..في أسرع وقت ممكن...ليعيش الآخرون " أصيب الجمع الغفير بالذهول ونال منهم الهلع فدوى صوت جماعي واحد شق ظلمة الليل ومخر عباب البحر:" لكن كيف ؟؟" بهدوء من خبر الموت أجابهم الشاب السوري:" بكل بساطة ..يجب أن نلقي بمائة وخمسين مهاجرا في البحر..و لنكون عادلين سنحتكم إلى القرعة.." خيم صمت كالموت ،سرعان ما كسّره الفقيه السمسار حين قام وكأنه يعتلي منبرا يخطب في المصلين فقال :" أيها الناس..في الإسلام ،الضرورات تبيح المحظورات..أيها الناس..من سنلقي بهم في البحر سيكتبون في زمرة الشهداء..سيدخلون الجنة من أبوابها الثمانية..أما من ستكتب لهم الحياة فسيصلون إلى ألمانيا وهي جنة أرضية فانية..طوبى للشهداء..وأنا سأحرص شخصيا على قراءة آيات من الذكر الحكيم على كل شهيد نلقي به في اليمّ.."

صاحب الحظ يونس طيلة الرحلة ومكنه من الوصول إلى المخيم الألماني لكن في المقابل سكنته الكوابيس المرعبة وذاق مشقة الأرق.. سكنته صور أسماك القرش وهي تنهش لحم المهاجرين...سكنته الأصوات التي لا زالت تصعد من غياهب أحشائه لتستقر في رأسه وكثيرا ما امتزجت بصوت أبيه وهو

يودعه وصيته في آخر لحظة الوداع :" يا ولدي..لقد اقترضت مبلغ الرحلة..أرجأت إجراء العملية الجراحية على عينيّ إلى أجل غير مسمّى...كلنا ننتظر أن يأتينا الخلاص من ألمانيا..يا ولدي لا تتزوج ألمانية كافرة ..ابنة عمك المسلمة الطاهرة في انتظار عودتك المظفّرة ...سر يا ولدي ..كن رجلا .. "

بالملجأ تعود المهاجرون الناجون من البحر وأسماك القرش والقنابل والرصاص ومافيات التهريب أن يجتمعوا في ساحة كبيرة يقصون على بعضهم البعض مغامراتهم التي تتشابه في أدق تفاصيلها لكنهم كلهم كانوا يحملون في أعمق أعماقهم حبهم لأسرهم وكانوا يتواصلون معهم ينقلون إليهم معالم الجنة التي بدأت ترسم في أذهانهم هنا في هذا المخيم الكبير.

اتصل يونس بأهله أخبرهم بنجاته من أهوال الموت وقال لهم والفرح يسابق كلماته : "هنا في المخيم الأكل وفير...و الرعاية الطبية عالية المستوى ، لقد شرع الأطباء في معالجة أسناني من التسوّس .. المخيم أجمل من أرقى حي بمدينتنا ...الممرات نظيفة والزهور ..الزهور متواجدة بكثرة والمدرسة مفتوحة طيلة أيام الأسبوع لمن أراد أن يتعلم...أكيد ستستغربون إن قلت لكم ، إن الألمان يفرضون علينا أن نأخذ حماما كل يوم

..لقد صدق الفقيه السمسار عندما قال لنا ألمانيا جنة أرضية.."

مع مرور الأيام انشرح صدر يونس وانفتحت شهيته على الأكل فتحسنت أحواله الصحية وبدأ لون بشرته يتخلص من تلك السّمرة المقهورة ،كما كادت أن تهجره كل كوابيسه المزعجة وأصبح أكثر تشبثا بالحياة لا يفكر في الوطن ...حاول أن يحصن نفسه أكثر فذاب في المجتمع السوري يتعلم لغته وتصرفاته وطقوسه الثقافية والاجتماعية...لكن السلطات الألمانية وفي غفلة منه كانت تراقبه وتتعقب تحركاته.

ذات صباح جميل ماطر قاده شرطيان بلطف إلى مكتب مسؤولي الملجأ هناك أجلسوه على كرسي ..بادلوه التحية وانشغلوا بالنظر في ملف يضم أوراقا وجواز سفر..أحس يونس بمغص في معدته ، استأذنهم بالتوجه إلى المرحاض. بعد لحظات عاد به الشرطي إلى المكتب الصغير فخاطبه أحدهم بلغة عربية فصيحة :" لا شك أنك تعرف يا سيدي لماذا أنت هنا أمامنا ؟" بلكنة سورية مضطربة قال:"ما أنا عارف..بَدّي أعرف وين المشكل ؟ " قدم له محاوره الألماني جواز سفره الحقيقي وقال له:" ستلتحق بملجأ جديد يضم مهاجرين غير شرعيين من جنسيتك...سيتم ترحيلكم إلى

وطنكم قريبا..أكيد..ستكون أحسن حال في وطنك الآمن.."
نظر إليهم بعينين زائغتين وكاد أن يسمعهم ما يقوله في نفسه:" أي وطن تريدون أن ترجعوني إليه ؟!!.. حظي التعيس حرمني من أن أموت شهيدا في البحر...وصلت إلى ألمانيا جنتي الأرضية..تريدون أن تحرموني منها ؟!! أسرتي تنتِظر خلاصا قادما من هذه الجنة..لم يعد الوطن يقدم لنا إلا بطائق انتخابات ...و لا شيء آخر...إلى أي منفى تريدون أن ترجعوني ؟!! "

خرج من ضياعه عندما قدم له محاوره كوبا من الماء ،شربه على جرعات ..استجمع ما تبقى له من قوة وقال لهم وعيناه تحدق في وجوههم المدورّة الحمراء :" أنا أطلب اللجوء..." نظروا إليه بحذر وقال له محاوره:" هل أنت معارض سياسي ؟؟ " فرد قائلا :" لا..أنا مثل أبي وأمي وإخوتي...كلنا نخاف من السياسة....لكنني .. مهدّد بالسجن أو القتل في وطني..." حدق في وجهه المسؤولون وعلامات الاستفهام والاستغراب بارزة على عيونهم..فاستطرد يونس قائلا:" نعم أنا مهدد بالاغتيال في وطني ...لأنني مثليّ..ينعتني المتطرفون الذين أهدروا دمي بالشاذ جنسيا ...حياتي في خطر...أطالب دولتكم بحمايتي !! " أمهلوه إلى أن أنهى كلامه..ثم قال له محاوره الألماني :" اسمع

سيدي يونس..لدينا بالملجأ الجديد أين سيتم نقلك عشرة آلاف من مواطنيك...نصفهم أعلنوا عن مثليّتهم والنّصف الثاني أعلنوا عن مسيحيتهم..كلهم يطلبون اللجوء وحماية الدولة الألمانية لهم.." أحس يونس بالحرج والخوف غير أن محاوره حاول أن يهدئ من روعه فقال له:" نحن لا نشكك في تصريحك وسننقل رغبتك إلى السلطات الألمانية والجمعيات المثليّة ..يجب أن تعرف أن توازنك النفسي واستقرارك الاجتماعي والمادي هو أولوية من أولوياتنا...لهذا سنصحب طلبك بتوصية تجبر المسؤولين – إن وافقوا على منحك صفة لاجئ -على أن يسهلوا لك السبل لتجد زوجا في أقرب الآجال يؤنس وحدتك ويعمل معك على بناء أسرة بوطنك الجديد.."

بلع يونس ريقه بصعوبة ...نظر إلى المسؤولين بعينين تائهتين وقال بصوت مسموع :" ماذا سأقول لأسرتي وأصدقائي ؟!!..و أبي الذي يريد أن يزوجني ابنة عمي المسلمة الطاهرة هل أقول لهم جميعا : إن ألمانيا تدرس إمكانية منحي صفة لاجئ مثليّ وسيزوجونني قريبا من رجل يؤنس وحدتي.؟!!..ليتني رحلت عن هذا العالم في بطن حوت عظيم "

القرار ومزبلة النسيان...

"حينما يقول الزوج لزوجته " أحبك" تسمو الحياة في عينيها وتنفتح أكثر على الجمال والعشق وحينما تقول الزوجة لزوجها " أحبك" ، تبرق عيناه فيبدع أحلى كلمات الحب ... تأسرهما الرغبة ويستسلمان معا لقبلات الوفاء وتسري في أوصالهما نشوة اللذة وتضيق المسافات ليصبحا كائنا واحدا ....لا يتكلم إلا لغة الحب ... " ضحكت الحاجة صفية ضحكة ماكرة وقالت لصديقتها الحاجة فتح الزهر : " آه... لقد كبرنا على هذه الأمور يا الحاجة.."

لم تعد تخفي الحاجة فتح الزهر ارتياحها وإحساسها بالسعادة وإن لم تتخلص بعد من كل ذكرياتها الأليمة التي أصبحت تبدو لها كفيلم قديم من فصيلة الأسود والأبيض .... تزوجها " الحاج لكبير" وهي طفلة قاصر ، كانت طفلة لا تعرف بعد معنى مؤسسة الزواج ومسؤولياتها ، وجدت رجلا غريبا يقاسمها الفراش ، احتارت في بداية عهدها به هل تناديه " عمي لكبير أو لكبير فقط" كان يقودها يوميا نحو السرير الفسيح ، يداعبها ، يلاعبها إلى أن تشعر بالأنس والأمان فيؤلمها ، كانت تخاف أن تستلقي على السرير وكان جسد الحاج لكبير يرعبها ، لأن كل ما فيه كبير وغليظ .

كانت الحاجة فتح الزهر تعيش على وقع يوميات الاغتصاب حتى اعتقدت أنها خلقت ليغتصبها كل ليلة وقبل آذان الفجر رجل يكبرها سنا ، واعتقدت أيضا أنها خلقت للإنجاب فقط .. كلما ولدت له ذكرا أحس الحاج لكبير باكتمال فحولته فيزداد فيه عنف الاغتصاب ويكبر فيها الألم.

كبر الأولاد وكان عددهم ثمانية ، تزوجوا ورحلوا بعيدا ، ثم رحل الحاج لكبير إلى جوار ربه وبقيت الحاجة فتح الزهر وحيدة، رفضت أن تبكي أيامها الأليمة وأن تجتر معاناتها وقررت أن تغير قدرها ، التحقت بمؤسسة لمحو الأمية ،تعلمت الحروف والكلمات والجمل ونمت بداخلها الأسئلة المحرجة .

في يوم ماطر حملت محفظتها واتجهت إلى المدرسة، في الطريق صادفت رجلا وقد أقبل على عقده السادس، لم تمانع أن يقاسمها المظلة ،تجاذبت معه أطراف الحديث وترافقا معا إلى المدرسة ، منذ ذلك اليوم لم تفترق عن " السي لمنور" ، جمعهما سقف واحد تبادلا تحته قبلات العشق ولذة العناق التي لم تشعر بها أبدا مع الحاج لكبير... فقررت أن تلقي به في مزبلة النسيان...

الطفلة العاهرة

حاز رمضان زوجة أخيه المتوفى كما حاز الأرض والمنزل والبقرة والحمار والمحراث ولم ينس أن يضم إلى ممتلكاته الخاصة حليمة الحالمة ،ابنة المرحوم...و هي طفلة كان عمُّها رمضان يشتهيها ..كثيرا ما خانته نظراته الباحثة عن أنوثة ولذة مستعصية في الجسد الصغير ،كان يراها فاكهة لم يحن بعد أوان قطافها...اكتفي بالنظر ،يراقبها وهي تنضج أمامه...

في يوم ربيعي جميل ، بينما كانت حليمة تتقاسم مع صغار العصافير أحلامها رمق العربي نهدين يستعدان للإعلان عن أنوثة طرية،حركته رغبة جامحة فشدها من يدها الصغيرة وقادها نحو الإسطبل، هناك بجانب البقرة استلقى عليها..بحث بيديه الخشنتين عن النهدين الصغيرين،عصرهما بعنف شديد ،ثم باعد بين ساقيها الهزيلتين واخترق عذريتها. أحست حليمة بالألم يتصبَّبُ عرقا من كل جسدها ،توسّلته بآهاتها فزادت فيه شهية العنف...

استفاق رمضان من رعشته المزمجرة بعد أن سال دم دافئ من بين فخذيها خضَّب التبن النَّدي.. نظر إلى جسدها

باشمئزاز..بصق في وجهها الطفولي ولعن أنوثتها وأجبرها على مغادرة القرية لأنها عاهرة دنست شرف القبيلة....

أريدك في الأرض ...قبل السماء....

كل الحكاية.. بدأت حينما عزمت ليلى على تعلم الكتابة والقراءة ... ليلى تجاوزت الأربعين بسنين قليلة، لازال زوجها مجنونا بها، يمطرها بكلمات العشق ، يستبد به جمالها ويأسره جسد لم يتأثر بعسر وجهد الإنجاب المتكرر ثلاث مرات. كانت ليلى تعيش كل السعادة مع المجنون ...فجأة تغيرت أشياء كثيرة ، فقدت إحساسها بالحياة .. أصبحت تستعجل الموت .. تهرب من دفء العلاقة الحميمية ، تتقرب أكثر من الله وتبتعد عن زوجها أكثر فأكثر كلما عادت من مركز محو الأمية .

كان المركز يستقطب نساء من مختلف الأعمار،كن يتعلمن به كتابة وقراءة الحروف ومن باب الصدقة الجارية كن يتلقين دروس وعظ وإرشاد ، قالت لهن المرشدة في درسها الأسبوعي :" أتعرفن أن للمرأة تاريخ صلاحية .... ؟!.. يستهلكه الزوج بنهم .. عندما ينتهي ذلك التاريخ.. ينتهي كل شيء بالنسبة لها ...." ضج القسم بضحكات وتصادمت في الفضاء علامات استفهام وتعجب،فأضافت:" بعد تجاوز المرأة سن الأربعين ، ينتهي تاريخ صلاحيتها ... تدخل سن اليأس فيصبح

حرثها مجرد عبث.. عليها إذن أن تبتعد رويدا رويدا عن زوجها وتتقرب من الله فتكثر من الصوم والصلاة والتسبيح ..."

كان وقع كلام المرشدة مفزعا على ليلى... سقطت في صراع نفسي مرهق تزيد حدته كلما أسمعها مجنونها كلمات العشق ... كانت تردد أحيانا بصوت مرتفع :" تاريخ صلاحيتي انتهى ...زوجي يشتهيني كل يوم أكثر .. ماذا يحدث لي يا إلاهي... ؟ " عاشت ليلى رحلة شك متعبة ، تاهت بين جاذبية لذة الجسد وجاذبية تحقيق اليقين والاستجابة لنداء الله .

انتصر في داخلها اليقين على الشك فقررت أن تصبح امرأة دائمة الصلاحية كما أوصت بذلك المرشدة :" ...مدة صلاحية المرأة في الأرض هي الأربعين أما في السماء فمدة صلاحيتها أبدية لا تنتهي ...عليكن أن تحرصن الآن لكسب السماء بعد أن فقدتن الأرض.."

لم يستسغ الزوج حالة الهجر، ضل في بحر تساؤلاته القاسية ،المتعبة :" ألم تعد ليلى تدرك أنني المجنون بحبها.. ؟؟؟." قرر أن يكون حاسما ومباشرا فسألها:" لماذا تغيرت نحوي .. ؟أين الدفء.. ؟ أين العناق والحنان ... ؟ أين كلمات الحب التي كانت تنعش قلبي ..و تضيء حياتنا.. ؟؟"

أجابته بنبرة فيها الكثير من اليقين والجدية :" انس كل ذلك... ! ! علينا أن نفكر نحن الاثنين في الآخرة...لقد انتهى تاريخ صلاحيتي... لم اعد صالحة للاستهلاك ...سأفتح قلبي لله فقط أحبه وأعظمه وأسبح باسمه.. ! !"

أمسكها برفق من يدها وقادها نحو غرفة النوم ، هناك على السرير استلقى بجانبها يداعب شعـرها ويقبل شفتيها ... قال لها : " تبا لمن جعل منك مادة منتهية الصلاحية .... ! ! أنا أحبك ....أحبـك ....و أعشقك... أريدك في الأرض ....قبل السماء...." أشرق وجهها بابتسامة أضاءت الغرفة ،وضعت على شفتيه قبلة ارتياح ونامت في دفء حضنه ومنذ ذلك اليوم نسيت أن تذهب إلى مركز الفضيلة لمحو الأمية....

الوزير والحلم

استنفرت لَلاَّ الحاجَّة كل أعوانها ومساعديها ،كانت حريصة على أن تكون زيارة الوزير للمركز مثمرة،استقدمت أمهات الأطفال المعاقين عبر الحافلات من أحيائهم العشوائية المنسية وحرصت على أن تقول لهن بصوت صارم :" يجب أن تشَرّفوا الجمعية...عليكن بتنظيف المركز ...لا تتركوا ركنا دون تلميعه..سيادة الوزير سيقوم بزيارة خاصة .. سيأمر بصرف إعانة مهمة لتسيير المركز ..أما أنتن..سأمنح لكل واحدة منكن خبزتين وعلبة سردين مصبَّر... "

لَلاَّ الحاجَّة امرأة صارمة، في الخمسين من عمرها حذقت حرفة التسول بالمعاقين ، راكَمت ثروة عقّارية هائلة ، استطاعت أن تنسج علاقات مصلحة مع أحزاب وجمعيات ومسؤولين ، لم يعد يخيفها أحد ولا يضايقها رجل ..هي السلطة الأولى والأخيرة .. اكتسبت مناعة قوية خاصة بعد انتمائها إلى الحزب....حينما حازت شرف لقب مناضلة حزبية قررت أن تخوض تجربة الانتخابات فحَشرَت كلَّ أولياء المعاقين وغير المعاقين من الأحياء الشعبية المنسية، وزعت

عليهم سكرا وزيتا ...فزادت حصانتها متانة ولم تعد تزعجها رياح التغيير.

مع اقتراب موعد الزيارة ارتفعت وتيرة العمل والتوتر.. تغيرت ملامح لَلاَّ الحاجَّة وبدت شاحبة متعبة ولكنها كانت تقول في نفسها :" كل هذا يهون ...المهم يجب أن تنجح الزيارة وأحصل على الإعانة ...يا رب يسر لي أمري.." كانت حَاجَتُها إلى الظفر بالإعانة الوزارية أكثر من ملحّة ..ابنتها المتواجدة بأوكرانيا تطالبها بمصاريف إضافية لإتمام دراستها...زوجها يريد تغيير السيارة...وهي تريد المزيد من المال لتغير فراش إقامتها وتقيم عرسا كبيرا لابنتها البكر ..

أحست بضيم كبير تذللت لله ورفعت كفيها إلى السماء وتمتمت تمتمات غير مسموعة، صلت صلاة استخارة وقررت أن تصوم ثلاثة أيام متتابعة..قالت في شبه خلوة :" يارب.. أنت تعرف سريرتي ..تعرف قوة إيماني ومقدار حبي لك.. لم تَتخلَّ عنّي أبدا ...أنا الآن في ضائقة .. من حقي يا ربي .. أن أضمن مستقبل بناتي ..يا رب اجعل الوزير يجزل العطاء.."

بعد خلوتها التعبدية عادت إلى الأرض وجالت في أرجاء المركز وبدا لها أن النسوة قمن بعمل جيد هنأتهن وقدمت لكل واحدة منهن خبزتين وعلبة سردين مُصبَّر ..ضجَّ المركز

بالزغاريد والصلاة على النبي العدنان ...حمدن الله على نعمته وانصرفن والفرحة تبرق من عيونهنَّ...

من أجل أن يطمئن قلبها تنقلت لَلاَّ الحاجَّة عبر كل أقسام المركز فهي لم تتعود أن تترك أيَّ أمر للصدفة .. تقف دوما على أدقّ التفاصيل وأثناء جولتها عرجت على قسم البنات لتتفقد تدريباتهن على ترديد نشيد الترحيب فقالت لمراد :" أريد أن أسمع الصغيرات وهن ينشدن النشيد " .

لم يتردد مراد وبحركة تشبه حركة مايسترو السمفونيات أعطى لهن أشارة الانطلاق:"

مرحبا مرحبا يا بابانا الحنون

على أيديك تعلمنا كل الفنون

مرحبا مرحبا بالنور الساطع

مرحبا بك يا وزيرنا اللاّمع .."

شعرت لَلاَّ الحاجَّة بالارتياح وهنأت مراد والصغيرات ووعدتهن بخبزة وقطعة شوكولاته ثم توجهت إلى قسم الذكور حيث يسهر شعبان على تدريبهم للقيام بحركات لم يفهموها وألعاب لم تثر فضولهم فقالت له بنبرة فيها الكثير من الغضب:" عليك أن تتدبر أمرك يا شعبان .. يجب أن يظهروا سعداء أمام الوزير..يجب أن تعلو وجوههم

ابتسامات عريضة..لا أريد أيّ حرج أمام سعادة الوزير ...أفهمتَ... ؟؟؟ "

سال عرق بارد من جبهة شعبان ، حاول أن يطمئنها لكنها تغافلت ركوعه ولم تسمح له بتقبيل يدها،و بحركة فيها الكثير من العنف اتجهت نحو الأطفال المعاقين وقالت لهم :" هل تحبون الجبن ؟؟..سأعطي لكل واحد منكم خبزة وقطعة جبن ...لكن يجب أن تبتسموا عندما يزورنا بَابَانا الوزير.."

حان يوم الحسم ، لم تذق لَلاَّ الحاجَّة طعم النوم، في الصباح أحست بمغص في بطنها انزوت في ركن من غرفتها قرأت شيئا من القرآن ورفعت كفيها إلى السماء وقالت بصوت مرتفع :" اللهم يسر ولا تعسر .." لبست قفطانا مغربيا مخزنيا ، وضعت على وجهها ماكياجا فضح أنوثتها المقصودة فبدت أصغر من سنها كما رشت أجزاء من جسدها بعطر فواح يعبر عن استعدادها لكي تذهب بعيدا مع السيد الوزير.

أمام بوابة المركز احتشد المعاقون وأولياؤهم واصطفت الفرق الفلكلورية الشعبية وبعد طول انتظار ظهرت أخيرا الطلائع الأولى للموكب الوزاري..توقفت سيارة الوزير أمام الباب نزل وعلامات تخمة الأكل والقيلولة بادية على بطنه

وعينيه استقبلته طفلة معاقة متعبة بباقة ورد جميل وانطلقت باقي الفتيات في ترديد نشيد الترحيب ...

بدأت الجولة عبر أقسام وأركان المركز وابتسامة الرضا بادية على وجه السيد الوزير، كان يدقق النظر في الأركان والوجوه إلى أن لفت انتباهه طفل معاق وقد تاه بعينيه في الفضاء ، اقترب منه مرر يده أمام عينيه لكن الطفل ظل تائها في الفراغ فقال له الوزير :" هل أنت معنا ياحبيبي .. ؟" استفاق الطفل من غفوته ورد عليه :" أنا في حلم سعيد.." فعاجله الوزير وقال له :" وبماذا تحلم يا حبيبي .. ؟" قال الطفل :" أحلم... أننا نحن الأطفال تعلمنا كيف نبتسم في وجه الوزير.... سنأكل خبزا وقطع الجبن والشوكولاته...فلا نشعر أبدا بالجوع..."

من على أرض المحشر

إهداء إلى كل الفتيات ضحايا فتوى نكاح المجاهدة...

-1

المجاهدة ياسمين

منذ أن حطت رجلها اليمنى بأرض المحشر، بدأ جهادها واستطابها المجاهدون فكانوا ينتظرون دورهم في طابور طويل لساعات طويلة بعيدا عن جبهة القتال .

المجاهدة ياسمين انتقلت إلى أرض المحشر عبر الحدود التركية رفقة مجاهدات من جنسيات مختلفة .. كانت الأجمل لكنها بدأت تشعر بأنها تفرّط في أداء واجباتها الدينية من صلاة وقيام الليل بسبب الجهاد الذي تمارسه طيلة النهار وجزء من الليل .

قررت أن تستفتي أمير الجماعة ، بعد الاستئذان دخلت عليه وجدت بغرفته مجاهدة وقد أنهت مهمتها الجهادية . جلست ياسمين وراء حجاب وسألته باستحياء:" أيها الأمير التقيّ،جهادي يمنعني من أداء الصلاة في وقتها ..و لم أعد أقوى على قيام الليل ... أيها الأمير التقيّ ..أرشدني لأنال الأجر كاملا "

بعد هنيهة من الصمت والتأمل رد الأمير فقال :" ديننا دين يسر ... ما يسري على كل المجاهدات يسري عليك..استلقي على الأرض في اتجاه القبلة .. ارفعي ساقيك نحو السماء ولا تحرمي المجاهدين من حقهم الشرعي .. صلي بعينيك ..الدين يسر وليس عسرا..المجاهدة دائمة الطاهرة وإن لم تغتسل أو لم تتوضأ...ستنالين أجر الجهاد وأجر الصلاة... ابشري بالجنة.."

-2

المجاهدة فاتن

كانت تأتيها العادة الشهرية بانتظام ، لكنها تأخرت عليها هذه المرة فأحست أنها تحمل في أحشائها جنينا ، لم تخبر أخواتها المجاهدات إلى أن بدأت تظهر عليها بعض العلامات الأولى للحمل . من وراء الحجاب استفتت المجاهدة فاتن أمير الجماعة فقالت له :" أيها الأمير التقيّ ..أنا حامل ولا أعرف أب الجنين لقد تداول عليّ مئات المجاهدين الأبرار ...ما حكم الشّرع في حالتي .. ؟ "

بعد صمت قصير رد الأمير فقال :" هذا الذي يوجد في بطنك ، ثمرة جهاد مقدس..لقد انتقاك الله وأكرمك ووضع في بطنك طائرا من طيور الجنة ..هو ابن أرض المحشر أين

سيبعث الله الخلق أجمعين.. ابشري أيتها الطاهرة... ولمزيد من الأجر لا تتوقفي عن الجهاد إلى أن تبلغي شهرك الثامن ... ربما يقدر الله وتشهدين تحرير الأرض المقدسة وتكتبين مع الأصفياء.."

-3

المجاهدة ميساء

تظل ميساء مستلقية على ظهرها ساعات طويلة من النهار والليل، بدأت تشعر بألم لا يطاق أسفل الظهر،لتخفف من حدة الألم كانت تسمح للمجاهدين البررة بمضاجعتها بطرق شاذة لكن حدة الألم كانت تزيد يوما بعد يوم فأرادت أن تستصدر فتوى من أمير الجماعة لترتاح من الجهاد يوما في الأسبوع فقالت له من وراء حجاب :" أيها الأمير التقيّ..حفظك الله... أشعر بتعب وألم حاد في الظهر أعزك الله..اقضي اليوم وجزء من الليل في مجاهدة النكاح.. ألا تفتي لي بضرورة أخذ قسط من الراحة ؟.. لأسترجع أنفاسي واجتهد أكثر في سبيل الله .."

رد الأمير فقال :" أيتها المجاهدة الطاهرة ..أيجوز أن نطلب من الله أن يمنحنا عطلة عن أداء الصلاة والصيام وقيام الليل...طبعا لا يجوز ..استغفر الله العظيم...جهادك في

سبيل تحرير أرض المحشر عبادة مقدسة..عليك أن تجتهدي أكثر لتنالي الأجر كاملا ..اجتهدي وثابري .. قومي ..المجاهدون ينتظرونك لينالوا ما وعدهم الله في الدنيا... إن الله لا يخلف الميعاد...ابشري بالجنة.."

-4

المجاهدة سيرين الرّومية

"سيرين" وافدة جديدة على أرض المحشر فتاة قاصر ذات عينين بلون السماء ووجه دائري ملائكي حلولها بجبهة القتال أربك المجاهدين ،ارتفعت فيهم شهية الجهاد الجنسي، كل واحد منهم كان يرى نفسه أهلا لمضاجعتها والظفر بكرم فض بكارتها قبل الآخرين .

انتبه الأمير إلى الفتنة التي أحدثها وصول "سيرين " إلى الجبهة، استغل خطبة يوم الجمعة فتكلم عن المرأة وخطرها في إشعال الفتن حيث قال:" المرأة عورة... حتى خلاياها عورة...أيها المجاهدون لقد اصطفاكم الله .. لا تفتنكم الدار الفانية..." بعد الموعظة، عرج الأمير ليتحدث عن سيرين، فقال لهم :" أيها المجاهدون الأبرار ..سيرين الرومية أسلمت بحمد الله وشكره ..جاءتنا مجاهدة من بلاد الكفر ، عذراء طاهرة لم يمسسها بشر أو جن ..ندخرها ليوم عظيم ..."

زادت خطبة الجمعة من اشتعال الشهية الجنسية بالجبهة وكانت سيرين الرومية العذراء الطاهرة حديث كل المجاهدين كانوا يترقبون اليوم العظيم بشغف كبير كانوا مستعدين لطلب شرف الشهادة من أجل امتطاء صهوة صدرها النافر لم يعد تحرير أرض المحشر يسكنهم بقدر ما سكنتهم بكارة سيرين وعذريتها التي لم يمسسها إنس ولا جن.

اجتمع مجلس الشورى واختار أعضاؤه المجاهد " أبو ميمنة الذبّاح" من لائحة طويلة لطالبي الشهادة مقابل فض بكارة سيرين ،ارتفعت في السماء تكبيرات المجاهدين فتوهج وجه الذبّاح واستعجل ركوب جسد الرومية قبل أن يستعجل الجنة . قادها إلى مخدعه أين تمت مراسيم الزواج حيث تلا عليها بعض آيات قليلة احتوت أخطاء كثيرة ثم انقض عليها يفجر بكارتها وآدميتها.. ...ماتت سيرين الرومية متأثرة بنزيف حاد وخرج " الذبّاح " في اتجاه المسرح ليفجر الكفار من العلمانيين والحداثيين.....أعداء الله والإسلام....

ملك السباع

قبل أن تدخل طلائع السيرك مدينة جديدة كانت كل التذاكر تنفذ من شبابيك البيع وكانت كل المدينة تتحدث عن شجاعة "ملك السباع"، تعددت الروايات واختلطت الأسطورة بالممكن لكن " ملك السباع" كان يجازف بحياته كلما دخل قفص الأسود، كان يستبد بعيون المتفرجين ،تظل شاخصة متوجسة، قلقة وخائفة، تزأر التصفيقات والهتافات حين يخرج من القفص منتصرا على الوحوش المفترسة التي تتحول بين يديه إلى قطط أليفة . كانت زوجته شديدة الافتخار بشجاعته، قاهرة الوحوش وكانت تتحاشى أن تحضر استعراضاته الخطيرة تفضل أن تنتظره بالشقة ولم يكن يغادرها القلق إلا حينما تسمع صوت الباب وقد فتح. كعادته دخل " ملك السباع" المطبخ ليسكت جوعه قبل أن ينام، لكن فجأة ودون سابق إنذار سمعت الزوجة صراخا مرعبا، نهضت وأسرعت الخطى نحو المطبخ فوجدت زوجها واقفا على الطاولة وهو يصرخ :" إنه هناك ...إنه هناك...أنقذيني يا عزيزتي من هذا الوحش اللعين..." تفحصت الزوجة كل أركان المطبخ فلم تجد أثرا لأي وحش مفترس، غير أن الصراخ تحول إلى هيستيريا : "

إنه هناك ...إني أرى ذيله الأسود المفزع...." هدأت الزوجة من روع زوجها، أنزلته من الطاولة بعد أن أكدت له أنها لن تترك الفأر الصغير يؤذيه ....في الصباح حرصت على ألا تعرف أسوده ما وقع البارحة...

زوجي.. حامل

طمأنت الطبيبة الزوجة بعد أن تفحصت التحاليل بكل دقة ،لكنها لاحظت قلقا جاثما على عيني رحمة فقالت لها بنبرة يقينية هادئة :" لا تقلقي سيدتي..التحاليل تؤكد أن زوجك... عفوا ذكريني باسمه.." ردت الزوجة على الفور :" أيوب..أيوب..يا سيدتي.."

" جميل..اسم يوحي بالصبر.. كنت أقـول..آه تذكرت ...كل المؤشرات تؤكد أن زوجك...سي أيوب سيلد بشكل طبيعي..يعني ..أننا لن نجري له عملية قيصرية..فقط يجب أن يتحلى بقسط قليل من صبر أيوب...أقصد النبي أيوب.."

لم تتمكن رحمة من طرد كل سحب القلق التي استبدت بجسدها... لكنها تشجعت شجاعة النساء وقررت أن ترافق أيوب إلى غرفة الولادة...هناك ابتسمت في وجهه ووضعت قبلة دافئة على شفتيه وقالت له :" لا تقلق يا حبيبي ... يكفيك شيء من الصبر...الطبيبة طمأنتني... لن أفارقك ..سأبقى بجانبك إلى أن تلد.."

أحكم قبضته على يدها ولم تحاول سحبها رغم إحساسها بالألم بل استمرت تمطره بابتساماتها المشجعة.. ما هي إلا

دقائق معدودات حتى أحس أيوب بالجسد الصغير يندفع نحو الأسفل معلنا عن أوان خروج الرأس..تعالت الأصوات المحفزة والمشجعة داخل غرفة الولادة بينما اختلط في فم رحمة الضحك بالبكاء وتراوح جسدها بين الفرح والخوف ..

رغم الألم الشديد الذي كان يتدفق شلالا من كل أحشائه حرص أيوب على أن يتحكم في نبرة صراخه قدر المستطاع وكان يستمد المزيد من القوة بإحكام قبضته أكثر فأكثر على يد رحمة...كان ينظر إليها نظرات امتزج فيها الحب والتوسل لتبقى بجانبه حتى يخرج مولودهما الأول إلى الحياة....

بعد ساعة قاسية ...فقد أثناءها الوعي لمرات عديدة ، استيقظ أيوب فجأة من غيبوبته وعيناه تتقاطران ذعرا ...تلمس بيديه المرتعشتين صدره فلم يجد ثدييه الكبيرين الذين كانت زوجته تتلذذ كثيرا حينما تشدهما بعنف...ثم تلمس بطنه فوجده فارغا..عاديا..طبيعيا ،تساءل في صمت:" أين هو الجنين ؟؟" واستطرد :"لا شك أنني وضعت عندما فقدت الوعي من شدة الألم..."

حدق في وجه زوجته النائمة بجانبه أيقظها وسألها بحدة :"هل وضعت ذكرا أم أنثى؟؟..و أين هو المولود؟؟.." نظرت إليه رحمة باستغراب مبهم وقالت له:" بسم الله الرحمن

الرحيم..ما بك يا حبيبي...عن أي مولود تتكلم؟؟..أنا لا زلت في شهري السادس...نم يا حبيبي ..أنا جد متعبة ...أشغال البيت كثيرة لا تنتهي إضافة إلى هذا الحمل..أنا فعلا منهكة...نم يا حبيبي..غدا لديك عمل.."

تفحص أيوب جسد رحمة وكأنه يتعرف على تضاريسه لأول مرة وقبل أن تغمض عينيها الذابلتين قال مخاطبا نفسه:"ما أصعب أن يكون الإنسان امرأة....الحمد لله على نعمة الذكورة... " أحكم أيوب قبضته على عضوه التناسلي وأغمض عينيه في إغفاءة حذرة....

الناعس سيدي الغالي

لا زالت المسافة تبعد يوما بعد يوم بين الدوار والمدينة ، رغم أن الكيلومترات الفاصلة بينهما معدودة لا تستوجب إلا ركوب حافلتين قد تقضي ثلاثين أو أربعين دقيقة لتحط الراكبين على مدخلها.

المدينة تثير فضول سكان الدوار يريدون معرفة أسرار ضوضائها وأضوائها ، لكن تواجد ضريح " سيدي بولقزابر " على هامشها حفز السكان لشد الرحال نحوها فأصبحت زيارة الضريح بمثابة " الحج الصغير " ما دام أن الاستطاعة لإتمام أركان الإسلام مستحيلة على أعظم ساكنة الدوار ، فاستبدلوا الطواف حول الكعبة بالطواف حول ضريح الرجل الصالح .

لا أحد من سكان الدوار يعرف أصل وفصل " سيدي بولقزابر" ولكنهم يتفقون على أن فقرهم سببه لعنة أصابتهم من الولي الصالح ، فلا بد أن يسترجعوا رضا مول القبة لتمنحهم السماء الغيث والكلأ وليذهب عنهم الغضب ، لكن استرجاع رضا " سيدي بولقزابر " أصبح مكلفا يستوجب توفير ثمن ركوب الحافلتين ونحر " ديك بلدي" على

عتبة الضريح ، وهكذا استحال " الحج الصغير" على غالبية سكان الدوار الذين اقتنعوا بأن اللعنة لن تغادرهم بما أنهم قصروا في واجبهم تجاه وليهم الصالح ، وهم ينتظرون الآن أن تنزل عليهم من السماء أو من أي مكان آخر بركة جديدة تنتشلهم من فقرهم وجوعهم وكثرة أمراضهم .

لم يكن " الغالي" يقاسمهم نفس الرؤية ، كان يرفض أن يستسلم للأمر الواقع ، ولازال يبحث كل سنة في يوم معين عن السبيل الذي يؤدي به للوصول إلى المدينة ، لم يكن يسعى إلى كسب رضا "سيدي بولقزابر" ولم يعتبر أن شد الرحال نحو المدينة هو حج صغير وإنما كانت تجذبه حركية المدينة الكبيرة بضوضائها وأضواءها ورائحة عطر نسائها.

كغيره من سكان الدوار ، فقد " الغالي" أشياء كثيرة ، فقد إشعاع الشباب والقدرة على قطع المسافة بين الدوار والمدينة مشيا على الأقدام ...لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره لكن الفقر والانتظار رسما على وجهه تجاعيد غائرة حتى أصبح وجهه يشبه أرض الدوار التي أنهكها الجفاف فرسم عليها تشققات وندوبا عميقة .

مع اقتراب موسم " شم عطر النساء" ترتفع حدة التوتر لأن الغالي لم يستطع بعد توفير ثمن الرحلة ولم يعد قادرا

على المشي نحو المدينة نتيجة إصابته بفقر الدم وكلما دنا الموسم زادت حدة التوتر والخوف والقلق ، وهو يعرف جيدا أنه كلما ارتفعت حرارة الجو تفننت نساء المدينة في اختيار العطور القادرة على حجب رائحة العرق والتعب . لا يمكن " للغالي" أن يتأخر عن الموعد لأنه يعتقد أن كل نساء المدينة وفتياتها يتعطرن أيضا من أجله لأنهن ينتظرن موعد تواجده بالمدينة ، فبدا مستعدا ليفعل ما لم يفعله سابقا من أجل أن يحصل على ثمن الرحلة ، .

لم يعد أمام " الغالي " اختيارات كثيرة ولم يعد أمامه الوقت للتفكير، وبدا مشتت التركيز كثير القلق أكثر من أي وقت مضى، يحدث نفسه ، يبحث عن الحل المجدي ، فجأة ارتسمت على وجهه ابتسامة وبدا مثل أرخميدس عندما خرج من حمامه صائحا " أوريكا ...أوريكا..." لكنه هو لم يرفع صوته مخافة أن يكتشف سره ، قر قراره وعزم على أن يسرق من أمه "المصروف" الذي كدت واجتهدت من أجل توفيره لضمان أكل يوم لأسرة تتكون من ثمانية أفراد ، مبلغ بسيط لا يقضي على ألم الجوع ولا يكاد يغطي مصاريف ركوب الحافلتين ذهابا وإيابا نحو المدينة . في تلك الليلة لم ينم " الغالي" إلا قليلا ، بات ينتظر الصباح وكان

صياح "الديكة" إعلانا على أن موعد شد الرحال قد حان ، خطف النقود القليلة وخرج دون أن يثير انتباه أفراد الأسرة ، فاستقل الحافلة الأولى ثم الثانية .

بعد مرور حوالي أربعين دقيقة انفتحت أمامه المدينة كما تنفتح فتاة عذراء أمام عريسها ليلة دخلتها ، لم يشعر بها عصية رافضة وإنما طيعة مستجيبة ، شعر بها تطيل العناق معبرة عن رغبة الوصال فأغمض عينيه واحتضنها بحب وشوق عظيمين ، شعر بنشوة العناق وبلذة جنسية فريدة ، نزل من الحافلة منتشيا بلذته ، طالبا المزيد ، ضم المدينة بين ذراعيه منبهرا بجمالها وأضوائها ، أحس وكأنه يكتشف جسد امرأة يبحث بين ثناياه عن ذلك العطر النسائي النادر ، كلما ولج شارعا جديدا يستقبل أنفه عطورا نسائية جديدة ومختلفة ، وترسم عيناه خرائط أجساد متنوعة ، تاه بين الأجساد والعطور إلى أن سقط أرضا مغشيا عليه .

لم ينتبه إليه أحد إلا بعد أن خرجت من أحشائه حشرجة تشبه حشرجة الموت ، حينها حملته سيارة إسعاف إلى مستشفى عام فدخل في غيبوبة مفتوحة ، بقي " الغالي" بالمستشفى أياما معدودات دون أن يستطيع الأطباء إخراجه من غيبوبته وكأنه يرفض أن يغادر عالمه الجديد بعد أن

ارتوى بعطر نساء المدينة وامتلأ بأجسادهن المختلفة عن أجساد كل نساء الدوار ، قرر الأطباء بعد أن أعيتهم كل السبل نقل " الغالي" إلى بيت أمه بالدوار وهناك ألقي على فراش بسيط في انتظار أن يخرج من الغيبوبة أو يفارق الحياة والدوار.

في الصباح سردت " أم الغالي" على جارتها حلما رأته البارحة لعلها تملك مفاتيح فك طلاسمه ، رأت في منامها رجلا بلباس ناصع البياض يقول لها : " أنا الناعس ، سيدي الغالي مول البركة " ، لم تكد " عبوش" والدة الغالي أن تنتهي من سرد حلمها حتى انتشر بين سكان الدوار انتشار النار في الهشيم ، حمد الرجال والنساء الله ، وقال البعض :" أخيرا تحل البركة بدوارنا " وقال البعض الآخر :" لم يعد سيدي بولقزابر غاضبا علينا " بل ذهب البعض إلى القول :" سيدي بولقزابر أجاز لنا أن نحج إلى بيت للاعبوش ، والدة الناعس سيدي الغالي ."

تداول السكان الخبر بفرح وحماس كبيرين ومنحوا "سيدي الغالي " كرامات كانوا بحاجة إليها ، حتما سيتغير وجه الدوار ، ستطرد اللعنة عنهم ، ويعم الخير وتتحقق كل الأحلام المعلقة والرغبات الممنوعة وتستيقظ في الفتيان

والفتيات لذة الزواج ، سيحج إلى دوارهم أناس من الدواوير المجاورة ، أناس يطلبون بركة " سيدي الغالي" فتزدهر التجارة ولن يبالوا بعد اليوم بالسماء هل ستجود عليه بالمطر أم لن تجود أبدا.

استيقظت "للاعبوش ، أم سيدي الغالي" هذا اليوم باكرا وحضرت بيتها البسيط لاستقبال الزوار أصحاب الأحلام المعلقة والرغبات الممنوعة ، حضرت بيتها لاستقبال كل سكان الدوار ، بعد سويعات قليلة من بدء الزيارات وتوزيع البركات على المحتاجين انفرجت أساريرها وارتسمت على شفتيها القاحلتين ابتسامة عريضة إذ أصبح بمقدورها اليوم أن تشتري شيئا من السكر والشاي والزيتون الأسود والخبز وأصبح بمقدور أطفالها أن يطردوا ألم الجوع عن بطونهم ، بل تجرأت فرفعت عيناها إلى سقف البيت المترهل وطافت بهما في أرجائه الضيقة وسمحت لنفسها أن تحلم بتغيير سقف البيت وشراء غطاء دافئ يحمي أبناءها لسعات البرد الجارح أيام الشتاء ، واختلت لحظة بربها فتوجهت بملء كفيها إلى الله شاكرة إياه على ما منحها من نعم وحمدته على ما وهب ابنها وبيتها من بركة راجية منه ألا يوقظ "الناعس سيدي الغالي " أبدا ...

بَعيدَ آذان الفجر بدقائق...

وهي تَهُمُّ بالخروج من الأستوديو قال لها التقنيُّ :" جمهور عريض ينتظر خروجك .." لم تصدق... ارتسمت على وجهها علامات الفرح الممزوج بالقلق وردت عليه بصوت خافت وكأنها تكلم نفسها :" يا إلهي ...بهذه السرعة أحب الجمهور الفيلم..لكن كيف شاهده ؟؟..لاشك أن موعدي مع النجومية قد حان أخيرا..."

وضعت على وجهها شيئا من مساحيق التجميل واستعجلت الخروج من الباب الرئيسي ، نظرت إلى الجمع الغفير الذي حاصر كل المنافذ وملأ الشوارع المجاورة ..فقالت بصوت مسموع :" يا إلهي كل هذا الحب لي!!...كل هذا النجاح! !..." لكن سرعان ما تحول الفرح إلى رعب مدمر سرت رعشته في كل أطرافها حينما ارتفعت الأصوات وبحت الحناجر مطالبة بالقصاص من الممثلة الفاجرة التي فضحت رجولتهم وعرَّت عورتهم...

في محاولة منها لتبرير موقفها وامتصاص الغضب الجامح استجمعت ما تبقّي لها من جرأة وصاحت بملء فيها :" أنا مجرد ممثلة..... حاولت أن أؤدي عملي بكل احترافية ..حاولت أن ألفت الانتباه إلى نساء وفتيات ومخنثين يعانون

في صمت... يشاركون بلحمهم ودمهم ودموعهم في اقتصاد الوطن..أنا مجرد ممثلة..شاركني الأدوار رجال لا زلتم تحبونهم.. لست المسؤولة عما يقع في مدنكم السياحية ...أنا مجرد ممثلة وأريد أن أعيش ..فقط !!.. " عم صمت حذر، فجأة تحول إلى بركان يقذف حمما من الغضب وأكواما من الموت ، أجمع المحتجون على إهدار دم عدوة الله والوطن والأخلاق والدين ...أهدروا دمها وحدها دون الذكور الذين نزعوا ملابسهم الداخلية أمامها وأمام نسائهم...

وهم منشغلون بالصياح وشحذ السيوف تسللت الممثلة وهربت من الوطن ،حملت معها جراحها العميقة لكنها قررت أن تمارس حقها في البوح..هناك باحت بأسرار مجتمع ذكوري يُقْبلُ فيه الناس على مشاهدة أفلام الجنس ويدينون من باب النهي عن المنكر أجسادا يشتهون الاستمناء عليها ....قادها البوح إلى أن تتكلم عن أبيها ويوميات الاغتصاب القاسية ....فتكلمت عن حلم العاهرة الذي سكنها كلما اختلى بها أبوها ...لازمها الحلم لكنها اختارت أن تكون ممثلة ...

في غمرة مسلسل البوح القاسي والناس منشغلون بتكفير الممثلين والمفكرين والمثقفين..... ساعدت الفقيهة الجليلة

خليلها الفقيه الجليل وهما في خلوة الشاطئ الجميل على القذف دون أن تبوح أين كان موضع هذا القذف من جسدها .. ...غير أن كل الذين أهدروا دم الممثلة والمفكرين والمثقفين.... كانوا يعرفون أن القذف تم بُعَيْدَ آذان الفجر بدقائق ...

- أنا أرفض...

" أكره الضحايا الذين يحترمون جلاديهم.." جان بول سارتر

أَحَسّ بارتباك شديد وهو يستعد لإلقاء كلمته أمام الحضور الغفير وأعضاء المجلس لكنه تماسك نفسه واستعان بما تبقى له من قوة وتجربة في التدريس ، أخرج الورقة من جيبه وفتحها بين يديه، ضرب على الميكروفون بأصبعه ضربات خفيفة كسر بها صمتا ممزوجا بحالة الترقب والانتظار. أحس أنه استعد بما فيه الكفاية وقال: " معذرة ، سيداتي سادتي ، لن أقرأ ما طلب مني أن أقرأه أمامكم ..." رمى الورقة أمامه فالتهبت القاعة الفسيحة بالترقب والتوجس، سال عرق بارد من أجساد أعضاء المجلس ، لكنه سرعان ما وضع حدا لحالة الترقب حين قال :" سأقرأ عليكم ، أيها الحضور الكريم ما حفرته سنوات السجن في ذاكرتي ، سأقرأ عليكم بعض عبارات القهر والعنف التي كتبها الجلادون على جسدي... وأعلن أمامكم منذ البداية : أنا أرفض..."

طيلة سنوات اعتقاله سكنه سؤال واحد وأوحد " : لماذا ؟؟ " لم يفهم أبدا لماذا اقتاده أولائك الغرباء إلى المعتقل ..و لم

يفهم لماذا تم ترحيله بين معتقلات لا يعرف طريقا لها ..لم يفهم ..لماذا..تعرض لأنواع من فنون التعذيب ...لم يكن قادرا على منحهم أجوبة لأسئلتهم العنيفة ، الغريبة...لم يكن يعرف ماذا يقولون وماذا يريدون....

كعادته حمل محفظته صباح ذلك اليوم ولم ينس أن يمطر زوجته بوابل من القبلات المشبعة بالحب نظر في عيون طفليه التوأمين الذين أحبهما وأحاطهما بحنان متدفق . وصل ذلك اليوم إلى القسم متأخرا ببضع دقائق وشعر بخجل كبير أمام تلاميذه ،لم يتعود على الوصول متأخرا ، كالعادة استأثر به البريق الذي يشع من عيون تلاميذه ..كالعادة حضر تلاميذ من أقسام أخرى وجلس بعضهم على الأرض لأن المقاعد فشلت في أن تحتضن الجميع. كان زملاؤه في الثانوية ينظرون إليه باستغراب وغيرة أحيانا كثيرة ، واتهمه البعض بأنه أفسد سلوك التلاميذ حين أصبحوا أكثر تحفزا على طرح الأسئلة المحرجة ....

لم يكن "سي المصباحي " أستاذ الفلسفة يبالي بما يقوله الآخرون ولم يكن يشعر بالتعب ، ولم يتأفف أبدا من أعباء القسم بل كان يشعر بسعادة لن يعرفها زملاؤه ، كان يعشق البريق الذي يشع من أعين تلاميذه لكن ما وقع ذلك اليوم

دمر أشياء كثيرة في حياته ... كان اليوم خميسا عندما سمع قرعا غير معهود على باب قسمه، استأذن تلاميذه ، فتح الباب ووجد أمامه رجلين ، عاجله أحدهما بالسؤال : " السي المصباحي ؟ هل يمكن أن تأتي معنا ؟...سنأخذ من وقتك دقائق قليلة ..اترك محفظتك على المكتب ...ستعود إلى تلاميذك بعد لحظات "

طال الغياب ولم يعد بعد " سي المصباحي " إلى قسمه ، اشتاق إلى البريق الذي كان يسري في أوصاله اشتاق إلى محفظته ، واشتاق أكثر إلى زوجته وطفليه ...نقلوّه من معتقل سري إلى آخر ، مارسوا عليه ساديتهم وخضع لأيام وليال للاستنطاق ، لم يكن قادرا على أن يمنحهم ما يريدون من معلومات عن خلايا سرية لا يعرفها ، كان يردد كلما سمحوا له بالكلام : " أنا أستاذ فلسفة ، أعشق البريق الذي يشع من أعين تلاميذي ...عملت بجد كي لا ينطفئ البريق في أعينهم وقلوبهم ، احتضنته ليزيد إشعاعا وكلما زاد توهجا ، توهج الأمل فينا جميعا وآمنا أكثر بالمستقبل .."

كان الجلادون ينظرون إليه بكثير من الريبة ، لم يفهموا أبدا ماذا كان يقول فكتبوا على محضر الاستنطاق " سري وعاجل : المدعو المصباحي رجل خطير ،يشكل تهديدا كبيرا

على أمن الدولـة واستقرارها " أحيل الملف جاهزا على المحكمة وفي جلسة استثنائية مغلقة حكموا عليه بالسجن المؤبد...

لا زال طنين مطرقة القاضي حين نطق بالحكم يدوي في أذنيّ " السي المصباحي" وقد اختلط بأزيز الميكروفون الذي لم يمنعه من مخاطبة الجميع : " أنا أرفض أن أتصالح مع جلادي... أتريدون أن تعرفوا لماذا... ؟؟؟" اختلط الصمت بالعرق وفقد أعضاء المجلس كل حيلة لثنيه عن الكلام " أنا أرفض أن أتصالح مع جلادي .....لأنه مارس عليّ ساديته وانتهك عرضي ..... اغتصبني في حلـمي ويقظتي.....و هو الآن يغتصب كل الشعب ،بعد أن فصلوا له حزبا على مقاسه..."

كانت سنوات الاعتقال الطويلة قاسية أشياء كثيرة غابت عن " السي المصباحي" لم يعد يفهم ما يقع داخل أسوار المعتقل ولا خارجها ، أثار انتباهه تزايد عدد السجناء الملتحين بألبستهم الغريبة ، استطاعوا أن يفرضوا قوانينهم داخل السجن وألزموا المعتقلين بأداء الصلوات الخمسة جماعة كما غيروا كل معالم الخزانة حيث اختفت كل الكتب الفكرية التي ناضل مثقفون ومفكرون من أجل

توفيرها وعوضوها بالكتب الفقهية..و أهوال القبور وتفسير الأحلام...أشياء كثيرة تغيرت...اختفت حلقات النقاش ومتعة الأسئلة الحرجة وحلت محلها دروس الوعظ والإرشاد التي كان يلقيها داعية يعرف باسم " أبو الدرداء" ،شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره، يملك كافة الأجوبة لكل الإشكالات الممكنة وغير الممكنة فقهية ،سياسية ، اجتماعية ،اقتصادية ،نفسية ، تربوية ، تعليمية..... وكان يلخص كل مشروعه المجتمعي في جملة جد مختصرة : " الإسلام هو الحل " .

آمن والتزم المعتقلون بما كان يردده" أبو الدرداء" في دروسه الوعظية، لكن ما أثار استغراب " السي المصباحي" أن الكثير من مريدي أبي الدرداء سرعان ما كانوا يعودون إلى السجن إما في حالة العود أو لارتكابهم جرائم أخرى كالسرقة وزنا المحارم واغتصاب الأطفال وما كان يزيد من استغرابه وألمه أن أولائك المريدين المتعودين على المؤسسة السجنية سرعان ما ينخرطون مجددا في مشروع أبي الدرداء الذي كان يجد دائما تبريرا فقهيا لاحتضانهم من جديد.

كانت جماعة أبي الدرداء شديدة الاهتمام بسي المصباحي وعندما أذن الله للداعية الشاب كي يتحدث إلى أستاذ

الفلسفة ، اقترب منه وقال له :" يا أخ مصباحي .. إن شاء الله.. أريد أن أتحدث معك في أمر مهم " من باب الفضول لبى " السي المصباحي " الدعوة وكان اللقاء في غرفة أبي الدرداء . جال الأستاذ بعينية في فضاء الغرفة وقال في نفسه :" من أين لك كل هذا النعيم ؟؟" لكنه سرعان ما عرف الجواب حينما قرأ على لوحة مزركشة بخط عربي جميل: " هذا من فضل ربي" .جلس الرجلان وبعد انتهاء مراسيم الترحيب قال أبو الدرداء :" يسعدني هذا اللقاء المبارك ،بعد أن أذن الله لي بذلك في رؤيا مباركة ، إن الله يحبك لقد أراني في منامي أن الإسلام سيعز بانضمامك لجماعتنا ...كل الإخوان يستبشرون خيرا في تلبيتك أمر الله ...فماذا تقول ..أخ مصباحي... ؟؟"

جال أستاذ الفلسفة بعينيه مرة أخرى في أرجاء الغرفة ولا زال السؤال يؤرقه :" من أين لك كل هذا النعيم ؟ ؟ ؟ " فكان يصطدم دوما باللوحة الجميلة:" هذا من فضل ربي " وضع رأسه بين كفيه وهو ينظر إلى الأسفل وغالب صمته فقال :" اسمع أيها الداعية ، أنا لا اعرف اسمك الحقيقي على الرغم من السنوات العديدة التي قضيناها معا في السجن ..و هذا في حد ذاته يثير لدي الكثير من التساؤلات

..أنا أختلف عنكم في أفكاري ومعتقداتي ...لا أعرف كيف أصلي ..لا أصوم رمضان...لا زالت لدي الكثير من الأسئلة الحرجة ولا بد أن أطرحها وأشك أن أجد عندكم ضالتي... لا أستطيع أن أخنق عقلي في أجوبة جاهزة...إنه اختياري ولا أسمح لأي أحد أن يرغمني على اختيار آخر...أظن يا أبا الدرداء لن تكسبوا أي انتصار بانضمامي لجماعتكم ، ربما سأسيء لمعتقداتكم ...و أقول لكم ...أنا أرفض ..."

مد يده إلى قنينة الماء ، أفرغ بعض الجرعات في الكأس واحتسى شيئا منها ، ما ساعده على استرجاع أنفاسه ، اقترب "سي المصباحي" أكثر من الميكروفون ..: " أنا أرفض هذه المصالحة ....لأنني بحاجة إلى أن أتصالح أولا مع ذاتي ...و مع زوجتي ...و مع ولدي ...ياسر ونضال ..لقد كبرا دون إذن مني...استغلا تواجدي القسري بالسجن وكبرا خارج أحلامنا وخارج دائرة الرسوم التي كنا نرسمها معا... "

كان يحب زوجته مرجانة ، كان يردد كلمات العشق بالقرب من شفتيها فتتعانق أنفاسهما ،حينما يعود من الثانوية يفتح الباب ويناديها : " أين أنت يا مرجانتي النادرة " لم يكن يتأخر عن الوقوف بجانبها بالمطبخ يساعدها ، يعطران معا أطباقهما بتوابل الحب والسعادة التي غمرتهما أكثر عندما

أنجبت التوأمين ياسر ونضال ، أحبها أكثر لأنها أتاحت لأحلامه أن تكبر لتلامس الغمام بل لتلامس النجوم...

رغم خبرته في تفكيك الأسئلة لم يستطع أن يفهم : " لماذا" صادروا أحلامه ومزقوا رسوم أطفاله حينما ظنوا أنها تحمل أسرارا خطيرة عن تنظيم خطير... لم يفهم لماذا قضى كل تلك السنوات في السجن ولم يفهم أكثر لماذا أطلقوا سراحه ، قيل له:" لقد هبت رياح التغيير.." وأرادوها قطيعة مع الماضي الذي أعطوه لون الرصاص .

وجد سي المصباحي نفسه خارج أسوار السجن لكنه لم يجد ابنيه ياسر ونضال ينتظرانه ،استقبلته " مرجانة " وحدها ولاحظ أنها فقدت توهجها المرجاني احتضنته بابتسامة مرهقة سألها عن ابنيه فلم يتلق أي جواب ، زاد قلقه وعندما وصل إلى باب المنزل الذي تكتريه عرف أن ياسر سقط في أحضان المخدرات ، يقضي يومه باحثا عن جرعة تهدئ رعشته وألمه بينما سقط نضال في أحضان الجماعة لا يكاد يبرح المسجد ،غيّر اسمه وأصبح يعرف باسم " جهاد"...

أحس " سي المصباحي " بالتعب... لم يعد قادرا على الاسترسال في الكلام أنهكته العلل التي أطلقوا سراحها معه

وهي الآن تفتت جسده ، استجمع ما تبقى له من قوة وبنبرة حادة خاطب الجميع : " أنا أرفض...لأنكم لم تطلبوا من زوجتي المصالحة ...و مع من ستتصالح مرجانة ؟ ....هل ستتصالح مع شركات النظافة التي انتهكت أنوثتها ومصت دماءها .. ؟؟ هل ستتصالح مع المعتوه الذي لم يكن يمنحها راتبها .. إلا بعد أن يحاول استدراجها إلى فراشه... ؟؟ معتوه يرى الرجولة في اغتصاب العاملات المتزوجـات والقاصرات .... مع من سيتصالح ياسر ونضال ؟...و هل طلب أحد منهما المصالحة... ؟؟ هل سيتصالح ياسر مع تجار المخدرات الذين قتلوا الحياة فيه ؟؟ وهل سيتصالح نضال مع تجار الدين الذين زرعوا في ذهنه حزاما ناسفا ؟؟ طلبتم مني أنا فقط مصالحة الجلاد ووددتم أن أردد مع من رددوا : " عفا الله عما سلف"...أنا لا يعنيني حكم الله ، أعفا أم لم يعف .. أنا أتحكم في إرادتي وأقول لكم : أنا أرفض أن أتصالح مع جلادي وأطالب بمحاكمته ...لأن ذاتي ترفض أن تتصالح معي...ولأن زوجتي ترفض أن تتصالح معي .. ولأن ياسر ونضال يرفضان أن يتصالحا معي ..."

بعد إطلاق سراحه قضى أياما رتيبة ، مملة، فيها الكثير من القلق والخوف والإحباط ، لم يعد يرى التوأمين إلا قليلا ،

فقد القدرة على إبداع كلمات الحب والعشق التي كان يمطر بها مرجانة ، هي الأخرى كانت تعود من عملها منهكة تحضر طبقا خلا من توابل الحب ، تستلقي على فراشها بعيدا عنه وتستسلم لنوم مقهور. ..في صبيحة يوم غريب ، خرج مستجيبا لقرع الباب ، فإذا به أمام سيارة فاخرة ، نزل منها وجه لم يكن غريبا عنه ، لبى دعوة العناق وعرف أن الرجل هو رفيق من رفاق الأمس ، جمعهما التعذيب والاستنطاق في بعض المعتقلات السرية، أحس الرفيق بعلامات الاستغراب بارزة على وجه " السي المصباحي" وتجنبا لأسئلته المحرجة عاجله بالقول :" لا تستغرب رفيقي ...أشياء كثيرة تغيرت ، علينا أن نساير التغيير ،ألم تر كيف أن الاتحاد السوفياتي تفكك والصين اختارت اقتصاد السوق..اركب معنا لدينا كلام كثير سنقوله لك.." لم يفهم " السي المصباحي " مناسبة هذا الكلام عن الاتحاد السوفياتي والصين واقتصاد السوق ... لبى الدعوة وامتطى السيارة الفاخرة ووجد بها شخصا آخر ،و قال الرفيق :" اقدم لك " سي مراد" مسؤول أمني كبير ، نريد أن نتحدث معك في شأن مستقبلك ومستقبل أسرتك..ستعرف كل التفاصيل فور وصولنا إلى المجلس."

أدخلوه إلى غرفة مكتب فخمة ، جلس الثلاثة وتحدث الرفيق عن نضال "السي المصباحي" ودوره في الانتقال الديمقراطي بالبلاد لكنه قاطعه قائلا :"عفوا.. لا تمنحني أوسمة لا أستحقها ...أنا مجرد أستاذ فلسفة وجدت نفسي في المعتقل دون أن أفهم السبب...لم أكن متحزبا... لم أشارك في مظاهرات ...كنت احضر دروسي جيدا وأعمل على أن يستمر بريق حب المعرفة مشعا في عيون تلاميذي....لم أفعل ما فعله منديلا...على الأقل هو فهم لماذا تم حبسه ...أما أنا فلا ..لازلت أبحث عن جواب.."

تدخل "سي مراد" لينقذ الموقف مخاطبا إياه :" اسمع يا سي المصباحي ، نحن نعرف أنك عانيت كثيرا ..نعرف أنك لم ترتكب أي جرم ...كل هذا لا يهم .. أصبح من الماضي..ما يهمنا الآن هو المستقبل ..يهمنا أن تعيش في ظل الديمقراطية الجديدة حياة هنيئة وسعيدة مع أسرتك...لهذا قررنا أن نخصص لك تعويضا ماليا محترما عن كل سنوات الاعتقال ...كما سيصرف لك راتب تقاعد مريح ...إضافة إلى أن بعض الجمعيات الإحسانية تضامنت معك وقررت منحك أنت وزوجتك تذكرتي حج إلى البقاع

المقدسة ..سنعمل على أن يخرج إسميكما في القرعة ...ماذا تقول في هذا العرض ... ؟"

خيم صمت مريب على الجميع، نظر " سي المصباحي" إلى الشخصين وتساءل في دواخله عن هذا الجمع الغريب بين رفيق الأمس ومسؤول أمني وكيف التفا حول نفس اللغة والرؤيـة والعـرض والمشروع احتفظ بهذا السؤال لنفسه لكنه طرح عليهما سؤالا أخر :" في المقابل ما هو المنتظر مني ..أظن أن هذا السخاء لا يمكن أن يكون بالمجان..."

أدرك " السي المصباحي" أن الشخصين كانا ينتظران هذا السؤال ، فأخرج الرفيق ورقة من جيبه وقدمها له قائلا له :" عليك أن تقرأ ما هو مكتوب على الورقة أمام عدد من الحاضرين وعدسات القنوات الوطنية والدولية وكاميرات الصحافة ..."

بعيون غاضبة حدق السي المصباحي في الكامرات وقال :" أنا أرفض...أرفض أن أتصالح مع إعلامكم الذي أراد أن يجعل من غبني وماساتي مذكرات تخفف عن المؤمنين الصائمين وطأة انتظار أذان المغرب..أنا أرفض..أي تعويض مالي يقتطع من جيوب الشعب.....أنا .....لم يعتقلني الشعب.... أرفض تضامن الجمعيات الإحسانية ولا أقبل

تذكرتي الحج لأنني لم أرتكب أنا وزوجتي مرجانة أي جرم...الجلادون هم من ارتكبوا الجرم ولن يكفيهم كل ماء زمزم لغسل خطاياهم ...أخيرا أقول لكم ...أنا أرفض...رافقتكم السلامة ."

دفع كرسيه إلى الخلف وانسحب من القاعة الفسيحة مخلفا وراءه صمتا لم يستطع أعضاء المجلس ، رفاق الأمس ، أن يكسروه . في تلك الليلة نام نوما مريحا ، استيقظ باكرا على غير العادة ، تناول وجبة الإفطار وهو يتابع الأخبار على بعض القنوات الفضائية إلى أن سمع قرعا معهودا على الباب ، إنه رفيقه المعطي الذي ولج الغرفة وقد ارتسمت على عينيه علامات الاستعجال والغضب ، ناوله جريدة " بلاد الخير" وقال له :"اقرأ ماذا كتبوا عنك على الصفحة الأولى" تناول سي المصباحي الجريدة ، جلس في مكانه المقابل للتلفاز ثم تفحص الصفحة الأولى وقرأ عنوانا مكتوبا بالبنط العريض " على المباشر،المصباحي ، المعتقل السياسي السابق يعلن كفره بالله." لم يقرأ المقال ألقى بالجريدة جانبا ، نظر في عيني صديقه المعطي القلقتين وقال له وقد علت وجهه ابتسامة: "لا داعي للقلق يا رفيقي... إنها رياح التغيير تهب.... لتبشر بديمقراطيتنا الجديدة .."

الخيانة

من حق الأجيال الجديدة أن تعرف كل الحقيقة.....
كل اللذة كان يجدها داخل زنزانته ، قلت رغبته في طلب الخروج منها ، ربما طول المقام جعله يطمئن لظلمتـها ورطوبتها وضيقها فهي لا تتسع لأكثر من سجينين اثنين .
طبعا لا زال يحمل بعض الذكريات الباهتة عن اليوم الذي ألقي به داخل الزنزانة منذ أكثر من عشر سنـــوات ولازالت بعض بقايا آثار التعذيب تبدو على بعض ملامح وجهه الشاحب .
في بداية عهده بالزنزانة كان يجد في الحفر على الجدران بأظافره القوية متعة كبيرة خاصة عندما تأخذ تلك الحفريات أشكال حروف يستمتع بتكوين كلمات منها لا يمل من ترديدها، لم تكن تلك الحفريات واضحة وكانت تزيدها الظلمة غموضا لكنه كان يجد القدرة على قراءتها وكان يسهر على تنظيفها من الرطوبة التي تحاول طمس معالمها
عاش عبد الرحمان أيامه الأولى مخترعا لكلمات جديدة يطيل النظر في الجدران ، يتلمس بيديه حفرياته أو حروفه إلى درجة أنه لم يعبأ بالسي العربي المنزوي في الجانب الآخر من الزنزانة.

السي العربي ، سياسي من نوع خاص ، عامل بسيط وجد نفسه في خضم النضال العمالي ، عرف بتحركاته بين صفوف العمال مدافعا عن حقوقهم وكرامتهم ، ذات يوم عندما استفاق من غيبوبته وجد نفسه داخل زنزانة مظلمة ، لم يفهم كيف وصل إلى هناك ، لا يعرف كم سنة قضاها بالزنزانة ، نسي ماضيه وظن أنه ولد داخل زنزانته ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة نتيجة شعوره بنشوة متعالية ، قد لا نجد مثيلا لها إلا لدى متصوف أدرك حقيقة العلاقة بين الله وعبده.

سي العربي كان يثير حقد وحسد حراس الزنزانة ، لأنهم كانوا عاجزين عن تفسير إحساسه الدائم بالفرح والسعادة ، لم يكن يبرح مكانه إلا لقضاء حاجاته الضرورية ، لكنه بدأ يشعر بشيء من القلق عندما أدخلوا عليه عبد الرحمان .

السجين الجديد أو عبد الرحمان شاب في مقتبل العمر ، يفيض حياة وقوة ، لم يسبق له أن تزوج ، لازال يحتفظ بكل قوته البدنية ، ولازال دمه يفور في كل عروقه وأعضائه إلى درجة أن عضوه التناسلي كان دائم الانتصاب وكأن الدماء الثائرة ستتدفق منه .

طبعا انشغل عبد الرحمان بحفرياته وكلماته ، وكان في نفس الآن يدرك تغير حال السي العربي من الفرحة إلى الحزن والغبطة إلى القلق ، حاول أن يعرف أسباب هذا التحول لكنه فشل ، ولم تمض إلا أيام حتى دخل الحراس إلى الزنزانة لإخراج جثة السي العربي ، لقد فارق الحياة عندما فارقته الابتسامة التي لا يعرف سرها أحد.

في غياب السي العربي ظل عبد الرحمان منشغلا بحفرياته وكلماته التي لم تعد تخضع لأية قوانين صرفية أو قاموسية ، وفي نفس الآن بدأ يحس أن الابتسامة التي سرقت من السي العربي ارتسمت على شفتيه وبدأ يشعر بفرحة تسري في أوصاله فتخلى عن حفرياته التي تلاشت بفعل الرطوبة ، وبدا وكأنه منشغل بما هو أهم ما دام أنه يشعر بالغبطة والسعادة والنشوة نتيجة الخدر الذي كان يتسرب يوميا إلى عروقه فيسري في دمائه لتشمل السعادة كل جسده .

أصبح عبد الرحمان يطلب يوميا جرعات إضافية من النشوة ، طبعا دماؤه لم تعد كما كانت في بداية عهده بالزنزانة ، لم تعد فائرة ثائرة ، لم تعد قادرة على الوصول إلى كل أعضائه كما أن عضوه التناسلي لم يعد يجد ما يكفيه من الدماء لينتصب انتصابه المعهود ، أصابه الهزال

وعلا الشحوب وجهه ، لم يهتم بكل هذا لأن الإحساس بالسعادة لم يفارقه والنشوة موجودة حسب الطلب .

حينما يشعر عبد الرحمان بنضوب النشوة وفتور السعادة ، كان يحك بأظافره الصلبة رأسه وأطراف جسده وجوانب عضوه التناسلي ، وكلما ارتفعت حدة الحك ارتفعت حدة الإحساس بالنشوة فلم يكن يبالي بالدماء التي كانت تلتصق بأظافره ، وأخيرا أدرك سر فرحة سي العربي ، لأنه اصبح يحمل على جسده نفس ما كان يحمله المرحوم على جسده ، إنها آلاف الحشرات التي آنست السي العربي وجعلته يعيش أحلى سنوات حياته وهو في السجن.

أصبح عبد الرحمان يحب تلك الحشرات ، كان يحفزها عن طريق الحك ليشعر بدبيبها ولسعاتها ، ليحقق أعلى درجة إحساس بالنشوة . الصمت ، الظلمة، الوحدة، الرطوبة ...و أشياء قاسية أخرى لم تعد تعني له أي شيء ما دام أنه يحمل على جسده جيشا من " القمل " يؤنسه ويدخل عليه الفرحة والسعادة ويرسم على شفتيه الشاحبتين ابتسامة تثير غضب وحقد الحراس .

لم يكن يخلد إلى النوم إلا بعد أن يطمئن على كل قمله ، فيبحث في جانبية عن " قملة " تائهة ، حينما يجدها يعاتبها

ويرجعها إلى مكانها ،و كان على عبد الرحمان أن يدفع كل يوم شيئا من دمه قربانا للقمل .

في صباح يوم غير عادي استيقظ عبد الرحمان على وقع ضجيج فتح باب الزنزانة ودخول الحراس الذين ألقوا بسجين جديد داخلها ، أحس عبد الرحمان بالخوف والقلق وانزوى في الركن المظلم ، يتلمس جسده وكأنه يحصي قمله ، يحك رأسه وأطرافه يبحث عن نشوة تذهب عنه القلق الطارئ ، يتكلم بما يشبه الهمس ، يخاطب " القمل" يترجاهم ألا يغادروا جسده ، يعدهم بأن يمنحهم كل دمه يطلب منهم عدم خيانته .

بعد يومين من تواجد السجين الجديد بالزنزانة ، دخل عبد الرحمان في كآبة قاتلة ، تلمس جسده مرات عديدة ، حك أطرافه بكل قوة ، لم يعد يشعر بالدبيب ولم يعد يحس بالنشوة المعهودة وأدرك أخيرا أن " القمل " خان العهد وغادر جسده المتعب نحو الجسد الغض الطري . أصبح عبد الرحمان ينظر إلى الشاب بامتعاض وحقد وحسد. في صباح اليوم الموالي دخل الحراس ليخرجوا جثته .

مات عبد الرحمان كما مات السي العربي، ولازال القمل حيا يمارس الخيانة تلو الخيانة.....

اعترافات أمام فنجان قهوة...

تعودَ"س" أن يحضن بين كفيه فنجانه الأحمر الصغير.. يتلذذ بدفء قهوته قبل أن يتلذذ بعنف مرارة ثائرة، كان يحيط قهوته بطقوس خاصة وأسرار غير معلنة... ذات مساء خريفي حملت حبيبته هاتفها ، ضمته إلى صدرها لتشحنه بشيء من دفئها ثم بحثت عن رقمه بين أرقام اصطفت في لائحة انتظار طويلة ، قالت له:" ألو حبيبي ...اشتقت إليك...وددت لو أراك...لكن أنت تعرف ظروفي..انشغالاتي كثيرة..." رد عليها بصمته المعهود...لكن، كعادتها سبقها غضبها وقالت له :" أنا أعرف ..أنت جالس معها...لا تريد أن أشغلك عنها بكلامي..لكن أرجوك أجبني ولو مرة واحدة ....لماذا هذا العشق المجنون..."

بصمته المعهود قال لها:" لأنني أرى فيها غجرية فاتنة...تسافر بي إلى عوالم العشق والتمرد... أرى فيها آخر راقصة شرقية ...تثيرني ..فأكتب عنها قصصا شعرية.." لمس غيرتها تلألأ دموعا انهمرت من حلقها لتشق طريقا عبر هاتفها الجريح، قالت له بملوحة الدموع : " أنا أحسد قهوتك...أنا أحسدها.." آنذاك قال لها:" أنت حبيبتي ...أنت من سكنت فنجاني....أَرشُفُ شفتيك كلما رَشفْتُ رشفة من

قهوتي.." حطت الهاتف على صدرها ...فرأى دقات قلبها تخفق داخل فنجانه الأحمر الصغير..

الحاج لزرق

كلما اقترب موعد الانتخابات شد الرحال نحو حزب جديد وأعلن استعداده للدخول في مزاد علني من أجل الحصول على التزكية ،جال بين حزب الذبابة والنحلة والملعقة والبرقوقة وحزب الحقنة والمظلة وأحزاب البرسيم والشعير والقمح،عرف طيلة مسيرته انتصارات وإخفاقات ولا يفكر في أن يترجّل أو ينزل من على صهوة جواده الجامح.

الحاج لزرق رجل انتخابات متمرس راكَم تجربة انتخابية كبيرة وثروة هائلة .. مستواه الدراسي جد متواضع لم يحاول أبدا أن يفهم العلاقة بين السياسة والانتخابات ،كان يقول لأقرب مقربيه :" أنا لا أمارس السياسة ،أنا أترشح للانتخابات والشعب يصوت عليّ .. أحيانا لا أعرف لماذا...كما لا أعرف ماذا أفعل في البرلمان.." لكن مع توالي الانتصارات عرف أشياء كثيرة وكبر فيه طموح الاستوزار ،فكان يردد أمام مساعديه :" بماذا يفوقونني أولائك الوزراء ... ؟؟ منهم من لا يعرف كيف يتكلم ..أنا أستطيع أن أبيع للشعب أطنانا من الوهم ..بماذا يتجاوزني الآخرون .. ؟؟ أنا أحسن منهم أملك الحلول لكل المشاكل..أنا ميسي الانتخابات

كل الأحزاب تشتهيني وتخطب ودّي..." لكنّه وبعد أن جال بين جلّ الأحزاب وجد نفسه هذه المرة أمام مشكلة عويصة وكان يردد في دواخله :" نحو أي حزب أشد الرحال والانتخابات على الأبواب ... ؟؟ "

اقترح عليه أحد مساعديه الأوفياء أن يجرب أحزاب اليسار لأنه لم يعد يختلف عنهم فقال له السي لصفر :" يبدو لي سيدي الحاج لزرق أن لك أفكارا يسارية ، فمن يسمعك تتكلم عن الفقراء يظن أنك تتلمذت على يد أشهر اليساريين مثل ماركس ولينين..و.." رسم الحاج لزرق علامات استفهام كبيرة على وجهه وتحدى جهله وقال :" أسي لصفر ..حياتي كلها وأنا لا أضع شيئا في جيبي إلا بيدي اليمنى فكيف سأتعلم الأخذ بيدي اليسرى أنا لا يمكن أن أكون عسريّا وأطلب الله أن أحشر مع أصحاب اليمين .."نظر إليه سي لصفر باستغراب مخفيا ضحكاته الماكرة وقال له :" ها هو سي لكحل قادم وسأطلب منه أن يشرح لك معنى أن تكون يساريّا محنّكا."

لم يترك الحاج لزرق لسي لكحل وقتا كافيا لاسترجاع أنفاسه فطلب منه أن يشرح له مفهوم اليسار قال له سي لكحل :" أن تكون يساريا أسي الحاج معناه أن تستمع

لنبض الشارع وتحس بقاطني الأحياء المهمشة وتساهم في تغيير حال الطبقات التي تعاني من الهشاشة..و... " بحركة فيها الكثير من الاستخفاف عدد الحاج لزرق خصاله اليسارية فهو طيلة مسيرته الانتخابية الطويلة خبر نبض الشارع وأحس بالفقراء وقال على الفور :" لقد فرقت قطعا من الحشيش على الشباب الضائع ...وزعت سكرا وزيتا على بيوت الفقراء ..و منحت أكباش العيد لأكثر من مئة عائلة ولم أنس الأرامل واليتامى..حتى المومسات اشتغلن معي وأديت لهن مستحقاتهن كاملة ..من الحرام أن نأكل عرق الآخرين... أتحدى أي يساري أن يفعل ما فعلته مع سكان الأحياء الشعبية المنسية..لقد بنيت لهم ثلاثة مساجد وسأكيّف الجميع خلال هذه السنة.."

نظر إليه السي لكحل باحترام مصطنع وقال له :" أنت قمة اليسار الجديد واقترح عليك أن تترشح باسم حزب " كل واسكت" ..فهو حزب يساري يؤمن بالزّرود ولم يعد يتعارض مع شعارك الخالد " طاجين البرقوق والحاج لزرق في الصندوق .."

حرص الزعيم المحنّك أن يحضر شخصيا لتأطير حفل منح التزكية للحاج لزرق وأبى إلا أن يرتجل كلمة على شرف

المناضل الجديد فقال :" سيّدي المناضل الحاج لزرق ..أيها المناضلون والمناضلات ..رغم حرارة مدينتكم حرصت على الحضور ..لأرحب بمناضل من طينة المناضلين الكبار الذين عرفهم حزبنا العتيد طيلة مسيرته النضالية...و عندما نرحب بالحاج لزرق إنما نرحب بالنزاهة والمصداقية..."

أنهى السياسي المحنك كلمته تحت دوي خافت لتصفيقات محتشمة أحبطت حماس الحاج لزرق الذي ألحّ على أخذ الكلمة فقال وهو يوجه للحضور الشاحب نظرات تطايرت منها شرارة الغضب:" لقد ترشحت باسم كل الحشرات والحيوانات المعروفة ...كما ترشحت باسم بعض الأسلحة البيضاء..و البرسيم والقمح والشعير ...و ها أنذا أحط على " كل وسكت " كنحلة تبحث عن رحيق جديد...غير أنني لم أشعر أبدا بالإحباط والفشل الذي أشعر به الآن في تجمعكم اليساري البئيس هذا ، رفقة زعيمكم الفاشل.." أحس الحاج لزرق أنه أصبح أكبر من الحزب نفسه ومن المناضلين والشهداء كذلك..و بحركة عنيفة دفع الكرسي إلى الوراء وانسحب من القاعة تاركا السياسي المحنك وقد علت وجهه ابتسامة غريبة تجعلك تظن أنه يعاني من ألم ما في بطنه.....و يريد أن يخرج على استعجال إلى الخلاء.....

رحل جدّي وأخذ الشمس معه

كنت أظن أن كل الحياة بدأت مع جدي...كنت لا أَكَلُّ عن النظر إليه وهو جالس يتأمل السماء من على ربوة قريبة من مداخل قريتنا .. كانت تروقني جلسته وهو يتتبع قرص الشمس حين يهوى إلى الأسفل...لم يكن يفوته هذا المنظر حتى أصبح طقسا من طقوسه اليومية وصلاة من صلواته المعهودة..

كان يأخذني معه لأستأنس بالغروب كان يقول لي :" إنها أجمل لحظة في الوجود ...فيها الكثير من الدلالات والعبر" لكنني لم أكن أعرف أين تذهب الشمس كنت أظن أنها تختفي وراء النهر المحيط بقريتنا وهناك ينهمك أقزام بوضع الحطب داخلها لتشتعل من جديد فيدحرجونها لتخرج من الجانب الآخر...خلف تلك الربوة...

حكايات جدي أيقظت في داخلي حب الحياة ..كبرت ولا زلت أحن إلى حكاياته ولا زلت أحيا بخياله... ، كلما رجعت من ديار الغربة طلبت منه أن يحكي لي حكاية..ذات يوم قلت له :" ألم ينضب بعد خزان حكاياتك يا جدي.. ؟ " نظر إليَّ بابتسامته المتأنية وقال لي:" حكاياتي لا تنتهي إلا عندما تنتهي فيَّ الحياة ويتوقف نبض قلبي..." بعد صمت حكيم

قال لي أيضا :" عندما تنتهي الحكايات ستختفي الشمس ولا تشرق من جديد "

عدت إلى غربتي وأنا أحمل معي نبض الحياة ، ومخاوف جمَّة...في صبيحة يوم غريب ووقت الغروب قريب رفعت عينيَّ إلى السماء ،فتشت عن قرص الشمس فلم أجده عرفت أن جدي مات ، فخفت ألا تشرق الشمس من جديد ...

الكلاسيكو

إلى روح والد صديقي محمد درويش...روح زكية عانق الثقافة في وقت كانت الثقافة حكرا على النخبة

تحدى خوفه ، قلقه وهواجسه، انتظر عودة أبيه من العمل فقال له:"..أريد أن أخبرك بشيء مهم.." كعادته لم يثر اهتمامه ،تجاهله واتجه نحو الغرفة ليستلقي أما شاشة التلفاز ..لا يريد أن يزعجه أحد هذا اليوم فهو يستعد لمشاهدة "ميسي" يلعب ضد "رونالدو"..إنه الكلاسيكو الإسباني استأثر به قرابة الشهر في يقظته ومنامه،في حله وترحاله...كم تمنى أن تتعطل الحياة من حوله..كره أن يسمع كلاما أو مطالب تزعج نشوة تمتعه بأهداف "ليونيل ميسي".

لم ييأس وحيد من محاولة لفت انتباه أبيه، تبعه إلى الغرفة وقال له:"أريد أن أخبرك بشيء مهم...الموضوع متعلق بحياة أو موت ! ! " رفع الأب عينيه نحوه،مستصغرا الأمر وقال له:"لديك دقائق معدودات... قبل أن يبدأ "الماتش" أخبرني بما لديك.." نظر إليه وحيد نظرة فيها الكثير من الألم ممزوجا باللوم والعتاب وقال له:"لقد خضعت لتحاليل

طبية...قالوا لي إنني أحمل الفيروس.."حدق فيه أبوه ورد عليه بنبرة مستهزئة:" أنت كلك فيروسات ! !...أي فيروس متهوّر قبل أن يسكن جسدك البئيس؟؟ "

انصرف الأب بعينيه نحو التلفاز مبديا اهتماما أكبر بصفارة حكم المقابلة وهو يعلن انطلاق نزال الكلاسيكو بينما واصل وحيد حديثه المتقطع:" لقد زارت حملة طبية مؤسستنا التعليمية... أجرت تحاليل طبية على من شاء من التلاميذ والتلميذات...كنت من بينهم.."

أدرك وحيد أن أباه لا يبدي اهتماما بكلامه لكنه رغم ذلك واصل حديثه وأخبره أن طبيبا استقبله بمكتب المدير وقال له:"أنت حامل لفيروس نقص المناعة المكتسبة" وأضاف الطبيب:" لا تخف...عليك فقط أن تتبع الإجراءات العلاجية السليمة...ستتمكن من التعايش مع الفيروس وتعيش حياة شبه طبيعية..لا شك أن أسرتك ستتفهم الأمر وتساعدك على تجاوز وقع الصدمة..."

كلام وحيد لم يمنع الأب من التفاعل مع "الكلاسيكو" بل كان يحتج على اختيارات حكم المقابلة وكان يضرب برجله اليسرى كرة وهمية محاولا توجيه تسديدة ميسي نحو الهدف.. عندما أحس بانتهاء ولده من سرد حكايته استغل

توقف اللعب ومال بعينيه نحوه وقال له:" ألم تجد إلا هذا اليوم لتخبرني بأنك أصبت بالسيدا ؟!...هذا الأمر لا يهمني ! !...اذهب أنت وسيداك إلى الجحيم...لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى ...احمل حقيبتك وغادر البيت فورا.."

لا زال وحيد يتذكر كل تفاصيل تلك اللحظة القاسية رغم مرور أربعين سنة...تعايش مع الفيروس وانتصر على مضاعفاته لكنه لم يستطع أن يتعايش مع وحدته وعزلته.. ظل يعاني من آثار جرح لا يندمل..زاد الجرح اتساعا وألما عندما وصلته رسالة من مجهول تقول:"أبوك يحتضر...يجب أن تزوره قبل أن يفارق الحياة..."

حمار عمي عمرو

عرفت عمي عمرو منذ أن تجرأت على الخروج من بيتنا حين ذقت سحر الخطوات الأولى ...لازال صوته الصارم يضج في أذني ولازالت نظراته الحادة تبعث في نفسي عنف الأسئلة...كل أطفال الحومة كانوا يتحاشون مواجهة النظرات المحذرة ... كنا نفسح له الطريق، أعيننا لا تفارق الأرض.. هو.. يرفع رأسه نحو اللامحدود في شموخ قائد جيش عظيم ..يمر الهوينى بعربة يجرها حمار في اتجاه عمق الحومة أين يستقر بيته...كان يعرف بين رجال ونساء الحومة بلقب "عمرو الحمال" نال إعجاب الجميع لأنه كان قويا يرعب الأطفال ويخيف الحمار...

في الصباح الباكر عندما كان عمي عمرو يخرج من بيته ،تسبقه نحنحة خشنة يوزعها الصدى على كل أرجاء الحومة فيهرع الحمار واقفا مبديا استعداده اللاّمشروط لبدء يوم عمل شاق..هرم الاثنان معا، الحمار وعمي عمرو ..أصاب عظمهما الوهن ...خبت سلطة الحمال .. لم يعد قادرا على إصدار نحنحته الخشنة المعهودة...ارتخت حباله الصوتية كما ارتخت عضلاته وغابت نظراته الحادة المخيفة

وتعب الحمار كذلك من عبء الجر وأصابه الكسل والفتور...أحس الحمال الهرم بما أصاب حماره فتحولت قسوته إلى لين .. كان يجلس على صخرة ينتظر لساعات أن يقف الحمار على أرجله ..أحيانا كانت تخونهما أرجلهما معا فلا يقفان ،يكتفيان بتبادل نظرات فيها كثير من الحب وقليل من اللوم...

في صباح صيف حار ...استيقظ الحمار مفزوعا يترقب خروج عمي عمرو من البيت...أعياه الترقب والانتظار لكن عمي عمرو لم يخرج وإنما خرج بكاء وعويل ..أدرك الحمار أن صديقه وشريكه قد مات ...في اليوم الموالي بحث أهل الحومة عن الحمار فوجدوه جثة هامدة بالقرب من قبر عمي عمرو الحمال...

شجرة حب غير عادية

حينما قررت أن تموت قرر هو أيضا أن يموت .. فرقتهما الحياة كثيرا ورفضا أن يفترقا من جديد في موتهما فاختارا أن يكون لهما قبر واحد..لم يشعرا وهما بداخله بالوحشة ..كان يقبلها وتقبله خلسة حتى لا يثيران حقد وحسد الموتى ...لكن قبلاتهما كانت تروي عروق شجرة نبتت فوق قبرهما وكلما زاد بريق القبلات زادت الشجرة نموا وبهاء...ذات يوم جميل أثمرت الشجرة قلوبا يقطر منها ماء الحب ...كبرت المدينة وكثر الزوار ..... استمر الحبيب يقبل حبيبته واستمرت الشجرة تورق من جديد وتثمر من جديد قلوبا وحبا لا ينضب....

حبيبي أصبح سمكة

عبر الهاتف كلمته حبيبته فقالت :" حبيبي ..أنا على شاطئ البحر.. سآكل سمكا.. هل يمكن أن تشاركني أكل السمك.. ؟ أنا أحبه كما أحبك.." تذكر الحبيب أنه يشتهي السمك وتذكر أيضا أنه يشتهيها هي أكثر لكنه رد متأسفا :" حبيبتي لا يمكن أن ألتحق بك الآن... حبيبتي ..أنا أغار من السمك ..لأنه سيلمس شفتيك .." ذرفت الحبيبة دمعة امتزجت بماء البحر فتحول الحبيب إلى سمكة ليلمس وحده شفتيها..

حضن دافئ

بعينين مغمضتين تلمس جانب السرير، لم يجد لها أثرا ، قام مسرعا، أشعل النور... لا وجود لها... ! ! جال باحثا عنها في أرجاء الشقة...غرفة بعد أخرى، كانت كلها فارغة...خاوية... زادت مخاوفه ثم تذكر أنه لم يبحث عنها في المطبخ، أسرع الخطى نحوه نظر في كل أركانه، فجأة طل برأسه على سلة القمامة، كانت هناك...أخرجها ،نفض عنها ما علق بها من نفايات، ارتسمت على شفتيه ابتسامة ارتياح، عاد بها إلى غرفة النوم واستلقى بجانبها على السرير ونام في حضنها الدافئ.

فهرس

هناك خطأ ما... !! 5
أكيد التحاليل كانت خاطئة 9
هو أم هي .. ؟؟؟..... 11
التوأم الذكر 16
صلاة مع الجماعة 18
حياة بنكهة الشّعّر والبطاطس 23
دمغة أهل الجنة 29
أنا بحاجة إلى هواء نقي 44
حزام ناسف وثلاثة أقراص فياغرا 48
حب أول نظرة 55
يونس المثّليّ 58
القرار ومزبلة النسيان..... 64
الطفلة العاهرة..... 66
أريدك في الأرض ...قبل السماء..... 68
الوزير والحلم..... 71
من على أرض المحشر 76
ملك السباع 81
زوجي.. حامل 83
الناعس سيدي الغالي..... 86
بَعَيْدَ آذان الفجر بدقائق... 92
- أنا أرفض... 95
الخيانة 108

اعترافات أمام فنجان قهوة... 113
الحاج لزرق 115
رحل جدّي وأخذ الشمس معه 119
الكلاسيكو 121
حمار عمّي عمرو 124
شجرة حب غير عادية 126
حبيبي أصبح سمكة 127
حضن دافئ 128